دون كيخوتي



تأليف

الكاتب الاسباني الشهير
ميخائيل سرفانتس

عربه عن الافرنسية
عبدالقادر رشيد

المطبعة السلفية - بمصر

القاهرة : ١٣٤١



دون كيخوتي

تأليف

الكاتب الاسپانى الشهير

ميخائيل سرفانتس

عربه عن الافرنسية

عبد القادر رشيد

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

القاهرة

١٣٤١

مقدمة المترجم

هذا كتاب دون كيشوت – او (دون كيخوتي)
كما هو معروف بلغة اهله – لمؤلفه الكاتب الاسباني
الشهير ميغيل سرفانتي (ميخائيل سرفانتس)، وقد ترجم
الى كل اللغات الحية منذ اكثر من ثلاثمائة سنة، وطبع
زهاء ١٥٠٠ طبعة منها ٧٠٠ بالاسبانية و٢٠٠ بالانكليزية
و١٩٠ بالفرنسوية و١٠٠ بالايطاليـة و ٨٠ بالبورتغاليـة
والالمانية، فاحرز شهرة عظيمة في العالم الغربي، لانه من
المؤلفات الفريدة في بابها .

ولد ميخائيل سرفانتس سـنة ١٥٤٧ بالكاله هنر
باسبانيا، وكان في عنفوان شبابه جنديا كأكثر كتاب
اسبانيا ففقد احدى ذراعيه في حرب (لبانت) البحرية .
وفي أثناء عودته من تلك الحرب المشئومة اسره قرصان
البحر وأخذوه الى الجزائر، فبقي هناك معتقلاً مدة خمس

سنين ، ثم افتداه أهله بالمال فأطلق سراحه . وعاد الى وطنه اسپانيا فأكبّ على تأليف الروايات وألف عدداً منها ، وكان في جملتها هذا الكتاب الذي جعله في عداد اشهر كتاب القرن السادس عشر .



﴿ ميخائيل سرڤانتس ﴾
« مؤلف الكتاب »

وكان سبب تأليفه هذا الكتاب هو أن كثيراً من الكتّاب في ذلك الزمن أخذوا يؤلفون روايات خيالية عن طرائق الشفاليه التي كانت سائدة في زمن الاقطاع في

القرون الوسطى ، فنسبوا الى رجال الشفاليه اعمالا لا تنطبق على الواقع ولا يصدقها العقل ، مما أضل الناس عن فهم حقيقة طرائق الشفاليه والغرض الاسمى الذي تأسست من أجله. فألف سرفانتس كتابه هذا يكذّب به ما جاء في هذه القصص من زخرف القول والسفاسف ، فجاء من أحسن كتب النقد واظرفها اسلوبا مع امتيازه بالفكاهة المضحكة جداً .

وكنت قد وطدت العزيمة على ترجمته كله ، غير اني وجدت فيه من تشابه الابحاث وتعدد الوقائع ما يدعو إسهابه الى الملل . ثم عثرت اخيراً على مختصره فعربته ، وها أنا ذا اقدمه اليوم الى قراء العربية مزيناً بالصور التي نقلتها عن الطبعة الفرنسية لتزيد الكتاب بهاء ورونقا . وأرجو من القراء غض النظر عن الهفوات او الغلطات التي يحتمل ان تقع فيه ، اذ ان العصمة لله وحده ، وهو الهادي الى طريق الصواب.

بغداد عبد القادر رشيد

المقدمة

كان في احدى القرى التابعة لمقاطعة المانش من مقاطعات اسبانيا الجنوبية – رجل شريف ذو هيئة واطوار قديمة ، لا يملك من حطام هذه الدنيا الا شيئاً يسيراً . وكان طعامه الاعتيادي قليلاً من لحم البقر ، يأكل قسماً منه في الغداء ويبقى القسم الآخر لعشائه . وفي أيام الجمعة ما كان يأكل هو وعائلته غير العدس . وكانت عائلته لا تزيد على مربية تناهز الاربعين ، وابنة أخت فتاة بلغت العشرين ربيعاً ، وخادم يشتغل في الحديقة وفي بضعة حقول مجاورة لها ، ويعنى بشئون الحصان ذلك الجواد الذي كان نحيلاً هزيلاً فيخاله الناظر اليه هيكلاً من العظام

كان هذا الرجل الشريف فقيراً معدماً وقد قلنا ذلك آنفاً . وكانت ثلاثة أرباع دخله تصرف على حاجات المعيشة رغماً عن القناعة والزهد اللذين كانا شعار ذلك البيت . وكان عنده ثوبان احدهما للأعياد والآخر من النسيج الخشن يصلح لان يلبس في سائر الايام . غير أن هذه القناعة لم تكن لتسد جميع حاجاته الضرورية فكانت معيشته تتطلب أشياء كثيرة . ومهما كان جور الزمان شديداً عليه فقد كان هذا الرجل مثال الشرف والكمال

و (شڤاليـه [1]) بكل معنى الكلمة ومخلصاً في جميع اعماله · وكان عمره زهاء خمسين سنة وجسمه نحيلاً جداً ، ولكنه عصبي المزاج ، ذو عزم متين ، يحب النهوض باكراً ، والسير في الهواء النقي ·



دون كيخوتي

وكانت فيه صفة تميزه عن رجال طبقته تلك ، وهي ميله الشديد الى المطالعة . غير ان هذا الميل لم يكن متجهاً الى مطالعة كل كتاب يعثر عليه بل كان مختصاً بصنف من الكتب التي اصبحت نوعاً ما غير مألوفة مع كرور الأيام ·

(١) الشڤاليه — Chevalier كلمة افرنسية تعني الرجل الشريف الذي يدافع عن حق الضعفاء ، ويحارب الظلمة الأشرار باسم الانسانية والدين. ولما لم نجد في العربية كلمة تقابلها بهذا المعنى تماماً اضطررنا الى اثبات اللفظة الافرنسية بعينها ·


دون كيخوتي يقلب كتبه

وبينما كان ذات يوم يقلب الكتب العتيقة في بيته عثر على بضعة منها تبحث عن وقائع واخبار رجال الشڤاليه الرحالين الذين كانوا ينتمون الى طريقة الشڤاليه في الزمن الغابر . وقد تأسست هذه الطريقة في القرون الوسطى ، في الوقت الذي كانت فيه الجمعية البشرية على اختلاف طبقاتها قاسية بربرية. واستطاعوا في زمن طويل ان يقوموا للبشرية بخدمات جلى ، ذلك أنهم هذبوا الطباع والآداب ، وعاملوا النساء باللطف والملاينة ، ودافعوا عن حق الضعفاء ، وعظموا قدر الشجاعة والقوة الحقيقة ، وعرفوا معنى الشرف والنزاهة الشخصية ، وبينوا صفات الرجل الشريف التي لم تكن معلومة حتى ذلك

الوقت ، أو أنها كانت معلومة ولكن الناس كانوا لا يريدون ان يعملوا بها . وبجمل القول أنهم شيدوا اركان العدالة والبشاشة والصدق في الاقوال والاعمال والشجاعة الادبية وغيرها من المزايا السامية الشريفة .

ولكن في زمن هذا الرجل الشريف المدعو (دون كيخوتى) كانت طرائق الشڤاليه القديمة قد أنجزت عملها، لأنها انما نهضت لنشر افكار جديدة بين الناس ، تتعلق بحياتهم الاجتماعية والشخصية ، فلما انتشرت هذه الافكار وعمت بين طبقات الشعوب انتهت المهمة التي نهضت من أجلها ، ولم يبق للشڤاليه الحقيقية أثر .

ومن سوء الحظ ان ظهرت بعد ذلك شڤاليه كاذبة تقليدية . وهؤلاء المقلدون لم يراعوا قواعد الشڤاليه الحقيقية بحذافيرها ، كما انهم لم يتجولوا أبداً في اقطار العالم لا بسين دروعهم وشاهرين سيوفهم لتقويم المعوج واحقاق حق الضعفاء والمظلومين . غير أن كثيراً من المؤلفين شرعوا يؤلفون كتباً مملوءة بالآراء السخيفة ، مدعين انها تاريخ وقائع الشڤاليه الحقيقية ، مع انها ليست الا أكاذيب وخرافات لفقها أصحابها من مخيلاتهم ، وأودعوها بطون كتبهم ، وليس لها مع الشڤاليه الحقيقية علاقة البتة . وكثير من الناس العقلاء الذين ليس لهم علم بتاريخ الشڤاليه

الحقيقية يضحكون بتهكم وازدراء عند ما يسمعون بنشر كتاب من هذه الكتب الكاذبة ، لأنهم يدركون لأول وهلة انها ستكون بلا ريب مملوءة بالخزعبلات والهذيان .

شرع دون كيخوتي يقرأ الكتب القديمة الصادقة عن الشفاليه الحقيقية ، فوجد في ذلك لذة عظيمة ، وأخذ يخصص أكثر اوقاته لهذه المطالعة . ثم ازداد شغفه وانهماكه حتى صار يفتكر ويحلم بها بلا انقطاع . وأخيراً ترك جميع أعماله وامتنع عن الخروج من بيته لكي يصرف وقته بمطالعة هذه الكتب في غرفته الخاصة . وهكذا حدا به الأمر الى ان صار ذلك دأبه في الليل والنهار ، وأصبح لا يفتكر بشيء سواه .

ولم يكتف بالكتب التي عنده بل احتاج الى مؤلفات جديدة أخرى ، فباع قسماً من حقوله واشترى بثمنها كتباً بعضها حديثة تقليدية ، وبعضها قديمة حقيقية . لأنه لم يعد يقدر ان يميز بين التاريخ الصحيح والتقليد الكاذب . وفي النتيجة لعبت الشفاليه الرحالة بعقل دون كيخوتي وصار مجنوناً بعد ان كان رجلاً مكرماً ذا فكر ثاقب ومحترماً من الجميع . وما كان يتكلم بغير هذا الحديث ، ذلك الامر الذي اعيا مربيته وابنة اخته وصديقيه القس ومزين القرية . فقر رأيهم على ان يأخذوا منه هذه الكتب التي كانت أصل البلاء كله علّه يثوب اليه رشده ويرعوي عن غيه ، ففعلوا ، ولكن النتيجة كانت أدهى وأمر ،

حيث عزم دون كيخوتى — بعد ان أخذت منه كتبه — على ان يصير بنفسه شفاليه رحالاً يطوف الاقطار والامصار ممتطياً جواده ولا بساً درعه لتقويم الخطأ في البشر أينما وجده ٠



أحلام دون كيخوتي

الفصل الاول

كل رجال الشفاليه الرحالين الذين قرأ بطلنا تاريخ وقائعهم كان لهم درع ، وحصان . وكلهم كانوا قد ائتمنوا على اسرارهم سيدة من السيدات الشريفات . فأول شيء يجب عمله والحالة هذه الحصول على هذه العناصر الجوهرية الثلاثة .

اما دون كيخوتي فقد كان عنده درع قديمة توارثها عن اجداده ، ولكنها كانت متروكة في احدى زوايا البيت منذ مدة طويلة . فأخرجها من مكانها وفحصها فوجد عليها طبقة ثخينة من



دون كيخوتي يرمم درعه

الصدأ غير انها لا تزال كاملة الاجزاء سوى مظلة الخوذة فانها مفقودة . فأخذ دون كيخوتي ينظفها ويرممها ليجعلها في حالة تصلح للاستعمال . وعند ما أتم ذلك جعل يفتكر بمسألة الخوذة لانه لم يرَ من المناسب ان يتجول شڤاليه بدون خوذة على رأسه أو ان يلبس خوذة بلا مظلة . فافتكر في الأمر مليّاً وأخيراً عزم على ان يصنع لها مظلة من الورق الثخين الذي كان عنده منه كمية وافرة . فصنع واحدة على الطرز القديم وركبها على الخوذة فاحسن صنعها . ومن سوء حظه انه أراد ان يختبرها ليرى ما اذا كانت قوية كالحديد ، فجرد سيفه وضربها به فشطرها بالضربة



خوذة دون كيخوتي

الاولى شطرين فأتلف في دقيقة واحدة ما عمله في أسبوع كامل.
وشعر دون كيخوتى بشيء من الفشل ، ولكن ذلك لم يثبط
عزيمته ، فاجتهد في صنع مظلة أخرى وجعل لها في داخلها صفيحة
رقيقة من المعدن لتصد عنه ضربات الأعداء. وعند ما أتم صنعها
فرح فرحاً لا مزيد عليه فثبتها على الخوذة بدون ان يختبرها
بضربات قاضية كالمرة الأولى.

بعد ان أتم دون كيخوتى اصلاح الدرع وترميمها وجه
عنايته الى الحصان فذهب الى الاصطبل ليراه . وقد قلنا ان هذا
الحصان كان هزيلاً جداً بطيء الحركة فاتر الهمة قد برزت عظامه
من جلده ، ولكن صاحبه وجده جواداً من أحسن الخيول ،



حصان دون كيخوتي

لا تفوقه في الشجاعة والنشاط أعظم الجياد شهرة في الحروب حتى ولا (بوسفال) جواد الاسكندر الكبير . فقضى أربعة أيام طوال لكي يختار له اسماً يليق ببسالته ، وأخيراً قرر ان يدعوه باسم (عنبر) .



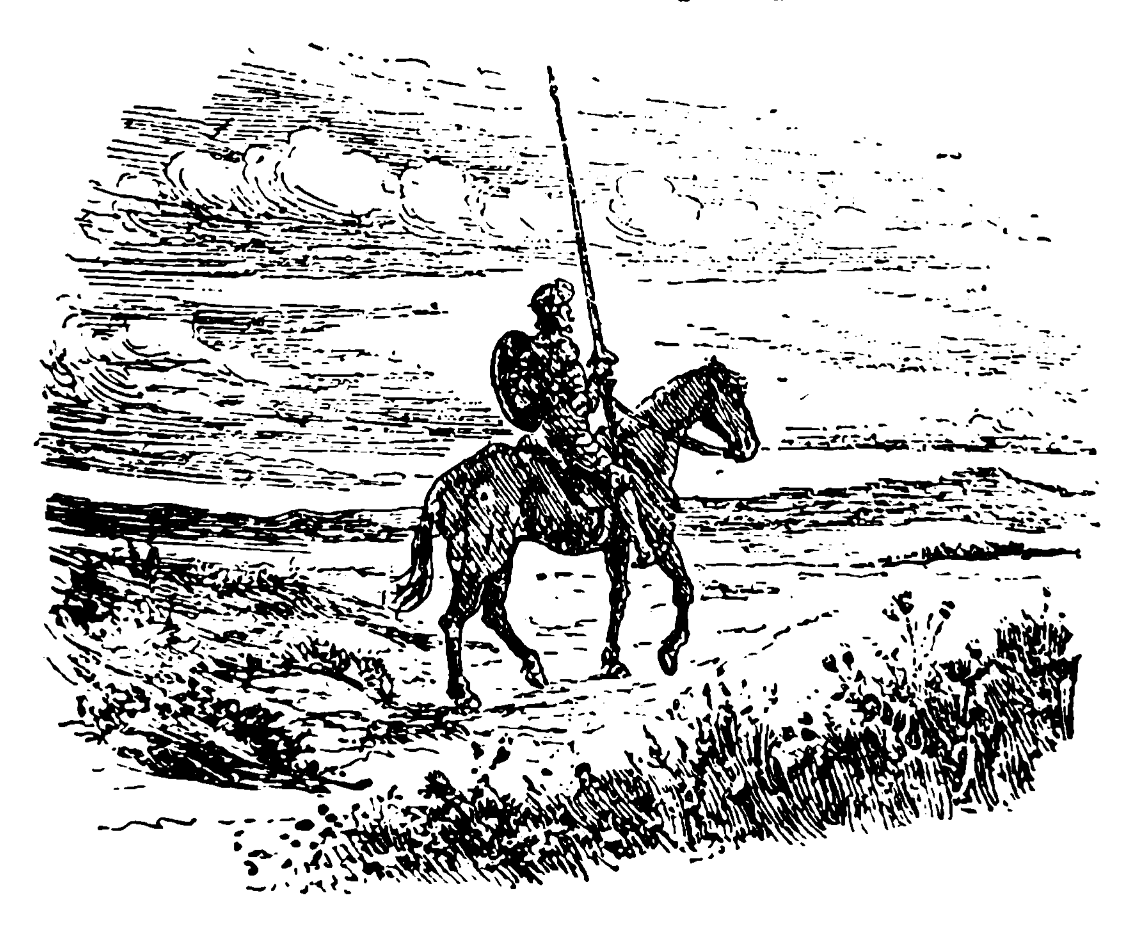
دلسينا دو توبوسو

بقي عليه ان يجد السيدة الشريفة ليستودعها مكنونات قلبه ، تلك السيدة التي يجب ان لا يكون لها مثيل في الحسن ، والتي سيضع تحت قدميها ثمرات انتصاراته . فلم يجد دون كيخوتي بين صديقاته ومعارفه امرأة تجمع هذه الصفات . ولكن كان يوجد امرأة قروية ضخمة الجثة خشنة الملابس والطباع تدعى (الدونزا لورنزو) فلم يشك في انها تصلح لغرضه بشرط أن يكون لها اسم فخم يرن في الآذان كاسماء الاميرات . فافتكر مدة طويلة بدون ان يتفوه معها بكلمة ثم

عزم على ان يدعوها (ديلسينا دو توبوسو) وهو اسم لا يرتاب سامعه في ان صاحبته أميرة شريفة ذات محتد كريم ومجد اثيل.

وبعد ان حصل دون كيخوتي على السيدة والدرع والحصان شعر بأن العالم بات ينتظر قدوم محرره ، وان الوقت ثمين فيجب ان لا يضاع سدى . ونهض صباح يوم من شهر تموز (يوليو) مبكراً قبل ان يستيقظ أهل البيت، فلبس درعه، وأسرج عنبراً، وخرج من الباب الخلفي خلسة دون ان يشعر به أحد .

سار دون كيخوتي على حصانه مجتازاً الحقول النضرة



دون كيخوتي في الطريق

والبراري المقفرة ، فرحاً مسروراً بنجاحه ، وثملا بخمرة الانتصارات التي سيحرزها على اعدائه . وفيما هو كذلك خطر له فجأة أمر لم يكن قد تذكره من قبل ، وذلك انه لم يتقلد سلاحه بموجب القواعد المرعية عند رجال الشفاليه . وعلى ذلك فان قواعد الشفاليه لا تسوغ له محاربة أحد من رجالها اذا التقى بهم في طريقه ، كما انه لا يمكنه ان يلبس الا درعاً بيضاء لأنه لم يأت بأعمال عظيمة تخوله لبس درع من غير هذا اللون حتى الآن .

فازعجت هذه المسألة دون كيخوتي وجعلته يرتبك في أمره حتى كادت توهن عزيمته وتدعه يقفل راجعاً الى بيته . ولكنه عاد فتأمل ملياً ، وأعمل قريحته ، فوجد لهذه المشكلة حلاً مرضياً . ومن ثم وطد النية على ان يصقل درعه صقلاً جيداً حتى تبيض ، وان يلتمس من أول شفاليه يصادفه في الطريق ان يقلده السلاح وقد قرأ في كتبه أمثلة كثيرة من هذا القبيل .

وهكذا ذهبت وساوسه ، فاستمر على سيره بنشاط تاركا حصانه يسير على مشيئته ، لأن من قواعد رجال الشفاليه ان لا يسيروا على خطة مرسومة من قبل .

انقضى النهار تقريباً والحصان يسير بفارسه دون أن يصادفا حادثاً ما . فتكدر دون كيخوتي من هذا الطالع النحس .

وعند المساء كان التعب قد أنهك دون كيخوتي وجواده

وكادا يموتان من الجوع ، فأخذ يلتفت يميناً ويساراً عله يجد قصراً يتعشى فيه ويبيت الى الصباح . فشاهد أخيراً فندقاً صغيراً على ناحية الطريق ، ووجد امام الباب بضع مركبات كان سائقوها قد نزلوا في هذا الخان ليبيتوا فيه ، ومعهم فتيات قرويات مسافرات الى (اشبيلية) ، فتلألأ وجهه من شدة الفرح .

ولما كان دماغ دون كيخوتي مفعماً بخرافات كتب الشفاليه لم ير هذا الكوخ الحقير الا قصراً فخماً ذا بروج عالية في زواياه وبرج صغير في وسط سقفه وجسر نقال ممدود فوق خندقه للعبور عليه . فوقف برهة ينظر الى النوافذ ليسمع صوت الطبل المنذر بقدومه ، واتفق ساعتئذ أن احد رعاة الخنازير في جوار ذلك الموضع زمر بزمارته ، وهي طريقة يستعملها الرعاة اذا أرادوا جمع قطيعهم للعودة من المرعى ، فأحدث هذا الصوت صدى استحسان لدى دون كيخوتي ، فتقدم نحو الباب حيث كان القرويات يتمشين ويتحادثن .

فلما شاهدن رجلاً مدرعاً حاملا رمحاً وترساً وله منظر غريب داخل قلبهن الرعب وركضن هاربات من أمامه لا يلوين على شيء . وعند ما رأى ذلك دون كيخوتي رفع مظلة خوذته الورق فبان من تحتها وجه أغبر ، عليه علائم التعب والضنك . ثم قال بلهجة جمعت اللطافة والاحترام معاً : ـ



دون كيخوتي والقرويات

« لا تهربن أيتها السيدات الشريفات ، ولا تخفن مني أبداً . ان قوانين الشڤاليه تمنعني من أن أعامل أحداً بفظاظة ، ولا سيما الاوانس اللائي من طبقتكن العالية ، ومنزلتكن الرفيعة . »

فلما سمعن هـذه العبارات توقفن قليلاً ، وهن متحيرات ضاحكات ، ثم أفضى بهن الضحك الى القهقهة العالية . فتكدر دون كيخوتى من ذلك ، غير انه كظم غيظه وقال : —

« أيتها السيدات الشريفات ! ان غايتي الوحيدة هي أن اكون في خدمتكن ، ولـكن أسمحن لي أن أبين لكنّ ان التواضع شيمة السيدات الحسان ، وان الضحك الكثير بلا سبب يوجبه دليل على الخفة وقلة الأدب . »

فأغـرب النسوة في الضحك ، فغضب دون كيخوتى من اطوارهن ، وكاد يحـدث مالا تحمد عقباه لولا ان ظهر صاحب الفندق على الباب ، وكان رجلاً سميناً ضخماً كثير الشحم ، مفطوراً على المسالمة والهـدوء ، يحب الراحة والسكينة ، ويكره العراك والجدال . ففاتح دون كيخوتى بكلام رقيق عذب قائلاً : —

« أيها السنيور ، اذا كان فخامتكم تريدون النزول هنا فعلى الرحب والسعة ، وستجدون كل ما تحتاجون اليه سوى الفراش لأن كل أسرّتي مأجورة ، غير ان المكان دافىء ويمكنكم أن تقضوا هذه الليلة على كل حال . »



مواجهة دون كيخوتي وصاحب الفندق

فسر دون كيخوتي من هذه العبارات الرقيقة ، والالفاظ الفخمة ، التي فاه بها صاحب الفندق ، فلم يشأ دون كيخوتي ان يخاطبه ـ عند ما كان يمسك الركاب ليعينه على النزول ـ الا بعنوان « صاحب القصر » . وباشارة خفيفة أبدى موافقته على المبيت مع قبول العذر الذى بينه صاحب الفندق بشأن الفراش ، وبعد ان تحقق لديه ان (عنبراً) يقاد الى الاسطبل أجاب بما يأتي : ـ

« ياصاحب القصر ! اعلم ان أقل شيء يكفيني ، وان للسلاح وحده قيمة عندي ، وان ساحات الحرب فراشي ومحل استراحتي »

ذهب صاحب الفندق ليوصي الخدم بعنبر ، وعند ما رجع وجد القرويتين تنزعان سلاح مسافره العجيب وهما على وفاق تام معه ، وقد نزعتا له كل درعه ما عدا الخوذة التي كان قد ربطها دون كيخوتي في الصباح بالشريط . ولما كان الشريط معقداً ومفتولاً فتلاً غير منتظم لم تتمكنا من حله فعزمتا على أن تقصاه بالمقراض ، فابى دون كيخوتي واختار أن تبقى الخوذة على رأسه طول الليل



القرويتان وقد نزعتا درع دون كيخوتي

وبعد ما فرغتا من نزع سلاحه شكر لهن صنيعهن هذا بخطاب مطنطن طويل ، وما فتيء يخاطبهن بلقب السيدات الشريفات . ثم سألتاه هل يريد أن يتناول شيئاً من الطعام فاجاب بالقبول مع الشكر الجزيل لأن الشقاليه المسكين لم يذق فمه الطعام منذ الصباح . فذهب صاحب الفندق ووضع امامه خواناً كان في احدى زوايا فناء الفندق وقدم له ما عنده من الطعام وهو قليل من سمك مشوي غير ناضج وكسرة من الخبز اليابس العفن .

ولم يكن تناول العشاء أمراً سهلاً على دون كيخوتي لأن احدى يديه كانت مشغولة دائماً بتعديل خوذته على رأسه ، والثانيه برفع مظلتها عن عينيه . ولما رأت القرويتان هذه الحال تقدمتا واطعمتاه بيديهما . وأما شرب الماء فقد كان مستحيلاً عليه ؛ ففكر صاحب الفندق بعد جهد جهيد في طريقة مناسبة وذلك انه احضر قصبة منقوبة ووضع أحد طرفيها في فم دون كيخوتي وصب الماء من الطرف الآخر . وعلى هذه الصورة استطاع أن يشرب .

وعندما انتهى العشاء نهض دون كيخوتي وتمشى نحو الاصطبل ، ثم أشار الى صاحب الفندق بأن يتبعه ؛ وهناك سقط على ركبتيه راكعاً أمامه متوسلاً ، فخجل صاحب الفندق من هذا الخشوع والتواضع الذي لم يكن له سبب ، غير ان دون كيخوتي أبى النهوض وقال : —



دون كيخوتي يلتمس من صاحب الفندق
« ان يمنحه لقب شفاليه »

« لا أنهض من مكاني هذا قبل أن تقضي لي حاجتي أيها السيد الشريف . واعلم انه يترتب عليك أن تمنحني شرف الشفاليه وسأؤدي هذه الليلة صلاتي في كنيسة قصرك ، وعند الصباح يجب ان تقلدني السلاح كشفاليه بطريقة شرعية تبيح لي ان أسير في طلب الحروب والوقائع في جميع بقاع الأرض ، لكي انقذ المظلومين من ايدي الطغام بموجب قواعد الشفاليه ونزعات رجالها الرحالين . »

ولما كان صاحب الفندق لا يكره المزاح والمجون ، وكان قد علم حينئذ أن دون كيخوتي رجل مختل الشعور ؛ عزم على أن يقضي له ما طلب . وحيث انه كان قد قرأ بعض الشيء من قصص الشفاليه الرحالة في سالف الزمن لم يصعب عليه الجواب . فقال له انه كان يوماً ما شفاليه رحالاً في صباه ، وانه تجول في العالم زمناً طويلاً في طلب الحروب ؛ ولكنه اعتزل أخيراً في هذا القصر لشيخوخته ، وهو يعيش الآن من دخل عقاره ، وانه مستعد لأن يكرم مثوى كل رجال الشفاليه الرحالين الذين يمرون من هذا المكان . وأضاف الى ذلك أن كنيسة القصر قديمة جداً فهدمها ليبني في مكانها كنيسة جديدة ؛ وأما اذا كان دون كيخوتي مضطراً الى اداء الصلاة في تلك الليلة لاتمام حفلة تقليد السلاح فيمكنه أن يصلي في فناء القصر اذ لا مانع لديه من ذلك .



صاحب الفندق يسأل دون كيخوتي هل عنده دراهم

ثم أتم حديثه بأن سأل دون كيخوتي هل عنده شيء من الدراهم ، فأجاب :

« ولا فلس واحداً . لأن جميع رجال الشفاليه الذين قرأت كتبهم لم يحملوا معهم شيئاً من الدراهم مطلقاً . »

فقال صاحب الفندق :

« انك مخدوع ياهذا ، وهل تظن أن الكتب تغفل عن ذكر الدراهم والقمصان ذينك الشيئين المهمين اللذين يحتاج اليهما كل رجال الشفاليه على اختلاف طبقاتهم . ومع هذا فلا يجب أن تعتقد أن الشفاليه محرومون من أحد هذين الشيئين ، وأنصح لك أن

لا تسافر من الآن فصاعداً بدونهما لأنهما مفيدان فائدة عظيمة لك أكثر مما تتصور . »



دون كيخوتي
« يتجول بفناء الفندق »

فوعد دون كيخوتي بأنه سيعمل بكل ما أوصاه به . ولما كانت الشمس قد قاربت المغيب ذهب دون كيخوتي الى الفناء ليقضي ليلته بالصلاة فوضع درعه في أحد الاحواض بقرب البئر ثم أخذ رمحه وفرسه وجعل يتجول داخل الفندق بجد ونشاط .

وبينما هو على هذه الحالة جاء أحد سائقي العجلات ليورد حصانه فوجد في الحوض درع دون كيخوتي فأراد ان ينتشلها ليضع الماء في الحوض فلما رآه دون كيخوتي يمد يده زعق به وقال : —

« قف أيها الشقالية المشهور ! من تكون أنت ؟ لا تدنس

بيديك درع ابسل رجل من رجال الشفاليه الرحالين الذين حملوا السيوف طول زمانهم لئلا يكون جزاءك الموت العاجل . »

فلم يعر السائق هذا الكلام اذناً صاغية ورمى بالدرع خارج الحوض بدون اقل اكتراث . فعند ذلك صرخ به دون كيخوتي قائلاً ايها المتهور مستنجداً باسم سيدته دلسينا وترك الترس وقبض على الرمح بكلتا يديه وطعن به رأس السائق طعنة صرعته فسقط الى الأرض بحالة مؤسفة . ثم رفع دون كيخوتي درعه عن الأرض ووضعها ثانية في الحوض واستأنف يتمشى على حالته السابقة كأنه لم يحدث شيء يذكر .

فلما رأى سائقو العجلات والمسافرون ما حل برفيقهم هجموا على دون كيخوتي مع صاحب الفندق والغضب ملء قلوبهم واخذوا يقذفونه بوابل الحجارة حتى اضطر دون كيخوتي الى وقاية رأسه بالترس على قدر الاستطاعة وجعل يوبخهم بأنهم كذابون خونة ومعنفاً صاحب الفندق بأنه شفاليه دنيء النفس قليل القدر لسماحه لبعض الأوباش بمعاملة أحد الشفاليه الرحالين معاملة سيئة كهذه

قال ذلك دون كيخوتي بحزم وشجاعة لا مثيل لهما مما جعل المسافرين والسائقين يكفون عن رميه بالحجارة وذلك لأن قسماً منهم خشي سوء العاقبة والقسم الآخر اذعن لنصائح صاحب الفندق الذي أكد لهم أن دون كيخوتي رجل مجنون . أما



هجوم سائقي العربات على دون كيخوتي

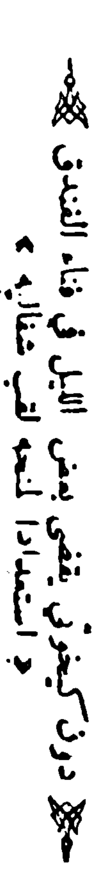
دون كيخوتي فانه امتنع عن التفوه بكل كلام بذيء ، ولكونه رجلاً شريفاً سمح لأعدائه بأخذ الجريح ثم رجع الى حاله السابقة رابط الجأش ساكن البال والخاطر كما كان قبل وقوع الحادثة .

أما صاحب الفندق فقد استقبح هذه العربدة التي حدثت في فندقه وعزم على أن يمنح نزيله المشئوم منصب الشڤاليه بأسرع ما يمكن خوفاً من تفاقم الامر ووقوع حادث آخر يكون وبالاً عليه.

فجاء الى دون كيخوتي واعتذر له عما فعله معه هؤلاء الأنذال ، وبين له أن ذلك كان بدون رغبته ثم قال : ان رياضة

ساعتين في الليل كافية لتسليحه بموجب قواعد الشفاليه ، وبما انه قد قضى أربع ساعات في فناء الفندق لم يبق عليه الا أن يضع السيف على عنقه وكتفيه في وسط الحقل خارج الفندق وهكذا تنتهي الحفلة على غاية ما يرام .





دون كيخوتي يقضي بعض الليل في فناء الفندق استعدادا لنيله لقب شفاليه

فصدق دون كيخوتي قول صاحب الفندق وطلب اليه أن يسرع فى اجراء حفلة التسليح وصرح بأنه اذا تقلد كشفاليه وترك فى هذا القصر فربما هجم عليه أحد واضطر حينئذ الى مقابلته فلا يدع شخصاً حياً سوى الذين يشفع لهم صاحب الفندق ويرجو منه الابقاء عليهم ٠

قال ذلك دون كيخوتى بطور هادىء ، فارتعدت فرائص صاحب الفندق وأسرع يبحث عن الفتاتين اللتين تكلمنا عنهما سابقاً وصبي آخر لكى يحمل الفانوس والدفتر الذي يكتب فيه حساب التبن والشعير ٠ وبعد أن أحضر الجميع التمس من دون



حفلة منح دون كيخوتي لقب شفاليه

كيخوتى أن يركع على ركبتيه ثم شرع يتمتم كلمات غير مفهومة كأنه يقرأها في كتاب وحالاً صفع طالب الدخول في سلك الشڤالية صفعة قوية على عنقه وضربه بصفحة السيف ضربة خفيفة على ظهره ثم أمر احدى الفتاتين أن تمنطق دون كيخوتى بسيفه ففعلت بكل احتياط وتحفظ لأن حادثة سائق العجلة وما جرى له مع الشڤاليه لم تكن ببعيدة عنها ومن شدة خوفها لم تستطع أن تمسك نفسها عن الارتعاش والرجفة . ثم ربطت له رفيقتها المهماز ، فشكر لهما صنيعهما هذا بخطاب مختصر ، ولكنه مملوء بالتعظيم والتكريم

وحالاً أحضر عنبر وأسرج . فتعانق دون كيخوتي مع صاحب الفندق مبيناً له شكره الجزيل على احسانه الذي لن ينساه قط وذلك بتقليده اياه كشفاليه . فاجاب الرجل الوديع على ذلك بما يقتضي المقام ولم يبحث قط عن ثمن علف الحصان وطعام الفارس بل صار ممتناً عندما شاهدهما يبتعدان بسلام .

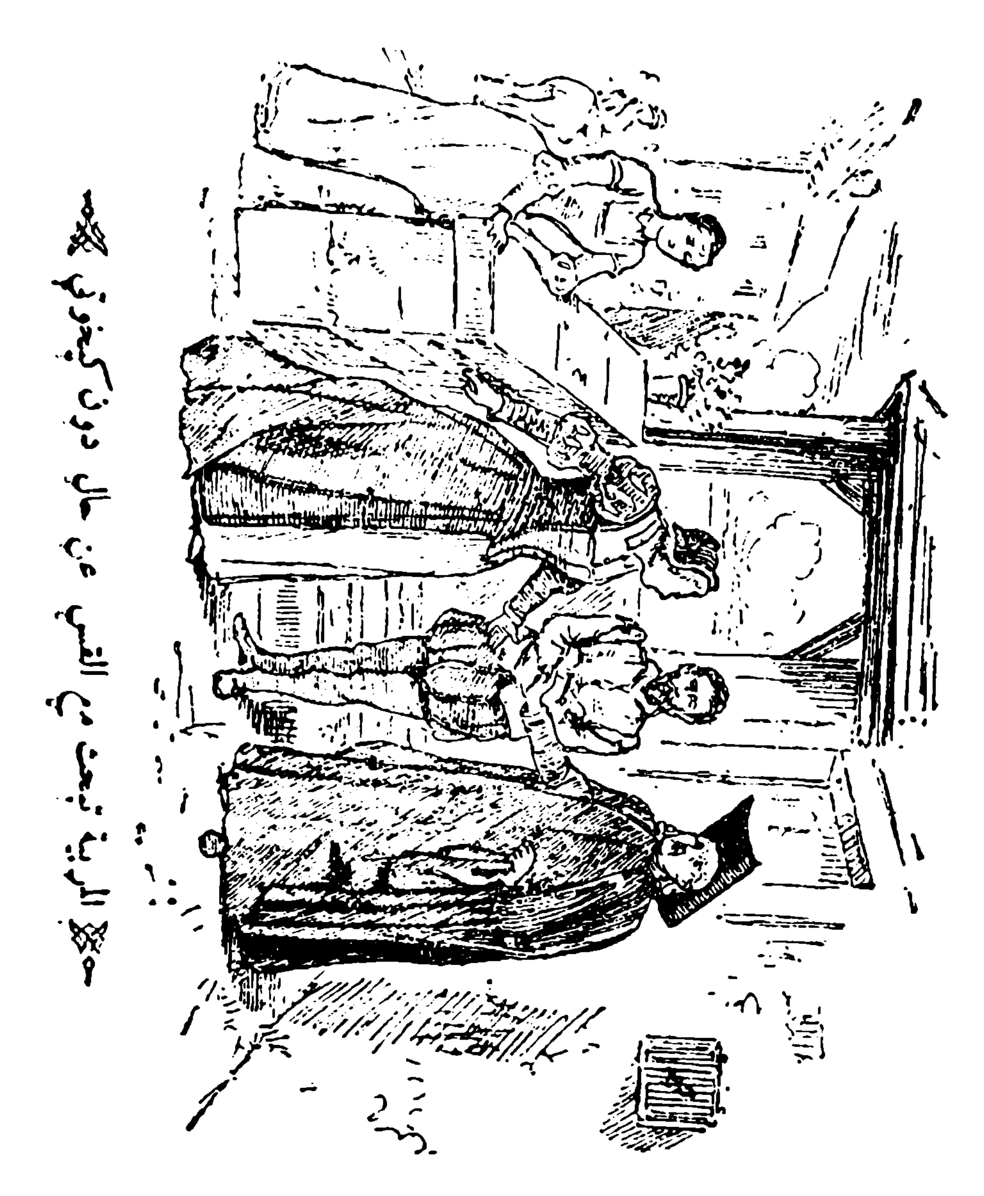
الفصل الثاني

خرج دون كيخوتي من الفندق عند طلوع الفجر فادار رأس جواده نحو البيت • وقد كان مصمماً على أن لا يضيع دقيقة من وقته الثمين سدى ، ولكنه افتكر بنصيحة صاحب الفندق وقرر العودة الى داره لأخذ شيء من الدراهم والقمصان • وقد أراد أيضاً أن يستصحب معه مرافقاً لأن جميع الشفاليه القدماء كانوا يستصحبون معهم مرافقين عسكريين[1]. وكان له جار عامل يشتغل باجرة يومية له زوجة وأولاد كثيرون فافتكر بان هذا هو الرجل الوحيد الذي يصح أن يكون مرافقاً له في اسفاره .

وبينما كانت هذه الحوادث تجرى كان الخوف والذعر مستولين على بيت دون كيخوتى بسبب اختفائه الفجائي الغريب وكادت المربية المسكينه تفقد رشدها وكذلك ابنة أخته فقد بحثتا عنه في كل مكان وسألتا أصدقاءه عن خبر منه فكان عملهما هذا بدون جدوى • وأخيراً حزرتا ما وقع له على وجه التقريب

وفي مساء اليوم الثاني من سفره جاء صديقاه القس (برز) والمزين الجراح (نقولا) ليستطلعا اخباره ، فقالت المربية للقس « ثق ياحضرة السنيور بما اقوله لك واعلم بأن هذه الكتب

(١) « المرافق » كلمة اصطلاحية تستعمل بدلا من كلمة « ياور » لأن « ياور » لفظ أعجمي



الربة تبحث مع القس عن حال دون كيخوتي

الخبيثة التي اكب سيدي على مطالعتها هي التي اضاعت شعوره »
وقالت ابنة اخته « نعم ، وانا متأسفة جداً ياحضرة القس لا تنالم
نسألك مرة ان تنظر في هذه الكتب المكروهة وتخبرنا عن أي
شيء تبحث . ومن رأيي انها يجب حرقها . »

فقال القس « ان رأيي كرأيكما وسآتي غداً صباحاً لانظر في
هذه الكتب قبل ان تحرقاها » . ولم يتم كلامه حتى قرع الباب

بشدة ودخل منه شاب قروي فقال انه وجد الشڤاليه المسكين ممدداً على الطريق في حالة يرثى لها فقرر ان يوصله الى بيته فاركبه



١ ﴿ عودة دون كيخوتي ﴾

على حماره وقاد جواد الحرب بالمقود لانه كان منهوك القوى لا يستطيع حمل نفسه . ولما سئل عن سبب الجارثة قال : لقد سقط عنبر تحت فارسه في الطريق وصادف مرور بعض المسكارين من ذلك المكان فعاملوا دون كيخوتي معاملة سيئة .

فصاحت المربية « أجل لقد تحقق ظني والكتب هي أصل البلاء . انزل ياسيدي عن هذا الحمار ودعنا نضعك في الفراش ، فانك تحتاج الى عناية ومداراة »

فأعانوا الشفاليه على النزول . وأخذوه الى الفراش . ولما شعر بقليل من الهمة والنشاط قال لهم انه وقع عن الحصان حينما كان يحارب عشرة جبابرة من أشد المخلوقات عناداً على وجه الارض .

فقال القس « اذن يوجد في هذه المسألة جبابرة حقيقة . ومادام الامر كذلك فسنحرقها غداً مساء . »

لم ينتبه دون كيخوتي الى معنى هذا الكلام ، وكان تعباً جداً حتى انه لم يقدر ان يأكل شيئاً ولم تأخذه سنة من النوم . ولكن القروي قص عليهم القضية بحذافيرها وقال انه وجده مطروحاً على قارعة الطريق بلا شعور واستنتج من حديثه عن القصور والشفالية والسيدات والجبابرة أنه رجل مجنون .

لقد اخلص القس والمزين في اقوالهما فجاءا صباحاً مبكرين وطلبا من المربية مفتاح الخزانة التي كان دون كيخوتي يحفظ فيها كتبه . وقد أرادت المربية ان تحرق الكتب الموجودة باسرها

لتخلص من شرها ، ولكن القس الذي كان عالماً فاضلاً لم يوافق على هذا العمل بل أخذ يقرأ عنوان الكتب من الصحيفة الاولى وكان المزين نقولا يقدم اليه الواحد تلو الآخر .

وأول كتاب رآه كان مؤلفاً قديماً جداً يقع في اربعة مجلدات ضخمة ، وهو أول كتاب طبع في اسپانيامن هذا النوع ، فوضعه على جانب منه باعتناء . ثم نظر الى الثاني فوجده كتاباً لا قيمة له ، فدفعه الى المربية وقال : خذيه وارميه من الشباك الى فناء



دون كيخوت مريض

الدار ، فسيكون هذا أول ما تلتهمه النار بالسنتها . وتلاه كتب كثيرة من هذا الصنف ، فسرت المربية سروراً لامزيد عليه . وبعد ان انتهى هذا العمل فرز القس الكتب التي رأى ان لها قيمة حقيقية ، واوعز الى المربية ان تحرق الباقي ، فاشعلت النار وسيدها مريض في فراشه ، وأحرقت معظم الكتب التي كان قد جمعها ككنز في مكتبته .



المربية تحرق الكتب بارشاد القس

انتهى أمر الكتب على هذه الصورة . غير ان ابنة اخته والمربية خافتا عاقبة عملهما هذا حينما يبلّ دون كيخوتي من مرضه ويسألهما عن مصير كتبه ؛ فعزمتا على ان تسدا باب الخزانة بالطين والحجارة وتجعلاها قسماً من الحائط ، كي لا تدعا مجالاً للريبة والشكوك . ولا تمام هذا الفصل اخترعتا خرافة لتقصاها عليه عند أول سؤال يبدر منه .

وبعد بضعة أيام أبلّ دون كيخوتي فنهض من فراشه ولبس ثيابه ونزل من غرفة النوم فتوجه نحو الخزانة ، ولما لم يجد الباب في المكان الذي يعهده فيه بحث عنه يميناً ويساراً لامساً الحائط بيديه ومحدّقاً عينيه بدهشة واستغراب . ثم سأل عما أصاب خزانة كتبه فاجابته ابنة اخته على الفور — وكانت قد تعلمت درسها عن ظهر قلب — :

« لقد ذهبت الخزانة ولن ترجع بعد ؛ وذلك انه حينما كنت مريضاً جاء ساحر يطير على السحاب ، لما رأى باب خزانتك وثب عن ظهر حية كان يستخدمها كمطية له ، ولا ادري ما فعل بعد ذلك . ولكن بعد مرور بضع ثوان من دخوله رأيناه خرج من السقف وترك البيت مملوءا بالدخان . وحينئذ شاهدت انا والمربية انه لم يبق للخزانة ولا للكتب التي فيها من اثر . »



دون كيخوتي يبحث عن خزانة كتبه

فصاح دون كيخوتي «آه، لابد ان يكون هـذا الساحر فرستون! انه ساحر ماهر وعدو لي لدود. وقد عمل هذا لانه يعتقد بأني ساشتبك يوماً ما مع شڤاليه من اصدقائه، واخرج من المعركة مظفراً منصوراً بدون ان يتمكن من معاونته.»

فرأت ابنة اخته والمربية ان ترك البحث معه في هذه المسألة اولى لهما، اذ ان ابداء أية معارضة لا رائه تكون سبباً لاثارة

غضبه ؛ فوجهتا البحث الى مسائل اخرى ، وهكذا انطلت عليه الحيلة ٠

مضى على ذلك خمسة عشر يوماً ودون كيخوتي لا يزال مقيما فى بيته ، واطواره وحركاته تدل على تعقل ورزانة . وأخذ يتردد على صديقيه القس والمزين ، ويكثر من الاجتماع بهما ٠ وكان لا يفوه بكلمة تنبيء عن عزمه على القيام برحلة جديدة، ولكنه كان يقول غالباً : ان العالم يحتاج الى رجال الشفّاليه أشد الاحتياج . فكان ذلك مما جعلهما يعتقدان بأنه عدل عن فكرته الأولى القائلة بلزوم العمل لاصلاح العالم وترقيته . غير أن دون كيخوتي لم يتحوّل عن عزمه ؛ وكان يستعد خفية للسفر مع الرجل العامل الذي اقنعه ليكون مرافقاً له .

كان اسم هذا الرجل سانشو بانزا ، وكان رجلاً أميناً ذا طباع وأطوار حسنة ، وذكياً على قدر الحاجة ٠ وقد وافق دون كيخوتى على التماسه حباً بالتجول في الاقطار والامصار ، ومشاهدة الوقائع العجيبة ، والتحكم في الجزر التي سيفتحانها ، وتخلصاً من البقاء في بيته الحقير واشتغاله بنقل الزبل من الصباح الى المساء . وقد ازدادت رغبته في السفر حينما وعده دون كيخوتي بأنه سيجعله حاكماً على أول جزيرة يفتحانها .

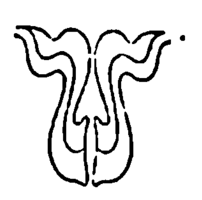


دون كيخوتي يتبعه سانشو بانزا

تم الاستحضار . فأخذ دون كيخوتي معه مبلغاً من الدراهم وبضعة قمصان ، وقد أصلح الدرع من جديد . وفي احدى الليالي خرج من البيت دون أن يعلم به احد ؛ فركب جواده ، واجتمع بسانشو بانزا ، وسافرا معاً : وقبل أن يطلع الفجر قطعا مسافة طويلة لاخوف معها من أن يلحق بهما أحد .

وكان سانشو بانزا راكباً على حماره (بوملو) كأنه بطريق

وتحته خرج كبير وضع فيه الزاد وما يحتاجان اليه فى السفر ، وهو متشوّق الى رؤية تلك الجزيرة التي وعده سيده بأن يكون يوماً ما حاكمها الآمر المطاع . وكان يتصور انه اذا توج ملكاً يستطيع ادارة الامور على أحسن أسلوب ، الا أن زوجته السنيورة ماريا بانزا لا يمكن أن تكون ملكة لبشاعة وجهها وقبح منظرها ، ولكنها ستقبل بلا شك أن تصير زوجة الحاكم لأنها تليق بهذه المرتبة وتقوم بواجباتها خير قيام .



الفصل الثالث

ما زال الشقالية ومرافقه يسيران ويتحادثان الى أن وصلا الى سهل واسع فيه ثلاثون أو أربعون طاحونة هوائية ،ولم يكد دون كيخوتي يراها حتى صاح :ـ

« آه ،آه . ان الطالع يساعدنا .انظر هناك ياسانشو تر أكثر من ثلاثين جباراً أنذالاً ، وقد عزمت على لقائهم واعدامهم الحياة. وسنغتني من أسلابهم التي ستصير ملكاً لنا بالحق الشرعي لانتصارنا عليهم . وعندي ان اتلاف هؤلاء الوحوش من مقتضيات العدالة . »

فسأل سانشو :

« جبابرة ؟ وأي جبابرة تعني ؟ »

فأجابه دون كيخوتي : —

« هناك أمامك . الا تراهم وقوفاً وأذرعهم ممدودة ؟ الا تدري انه يوجد اناس من هذا الجنس الممقوت الذين لهم أذرع طويلة تكاد تكون أطول من جسومهم بخمسة اضعاف ؟ »

فقال سانشو مندهشاً : —

« أرجو من سيدي السنيور أن ينظر اليهم جيداً . انه

هذه الأشياء التي تراها أمامك ليست جبابرة بل هي طواحين هوائية . وأذرعها اجنحة تدور بالهواء فتحرك الطاحونة .»

فأجابه دون كيخوتي والغضب آخذ منه مأخذاً :

« قلت لك ان هؤلاء جبابرة . واذا كنت تخاف منهم فتنح الى الوراء وصلِّ صلاتك »

ثم صاح في الطواحين بأعلى صوته :

« تقهقروا أيها الجبناء ! لا تكونوا انذالاً فترتكبوا جريمة الفرار من امام شفاليه واحد يجسر على محاربتكم جميعاً »

وفي اثناء ذلك هبت الريح وحركت اجنحة الطواحين فاتخذ ذلك دون

دون كيخوتي وسنشو بانزا
« على مقربة من الطواحين الهوائية »



هجوم دون كيخوتي على الجبابرة

كيخوتي شارة منهم على استعدادهم لمنازلته فلم ير حاجة لزيادة الكلام ، بل رفع ترسه امامه وانتشل رمحه وهمز جواده نحوها منادياً (ديلسينا) سيدته ؛ وهجم على الطواحين بالسرعة التي يستطيعها عنبر . ولم يكد يضرب جناح احدى الطواحين التي امامه حتى تكسر رمحه قطعاً من شدة دورانه وسقط هو وحصانه الى الأرض بدون حراك

فلما شاهد سانشو ماأصاب سيده اسرع لمعاونته وقال له :

«ألم أنبهك من قبل ؟ أما قلت لك ان هذه طواحين هوائية ؟ انه لا يمكن أن يظنها أحد غير ذلك الا اذا كان في دماغه شيء من الخبال ؟ »

فأجاب الشڤالية : « تمهل ياصديقي سانشو . لقد تأكد لدي أن هذا من عمل عدوى اللدود الساحر فرستون الذي ذهب بخزانتي وكتبي . فقد حوّل منظر هؤلاء الجبابرة الى طواحين هوائية لكى يحرمنى من شرف النصر عليهم . ولكن لا ! لن يساعده الطالع دائماً فسيأتي يوم أريه فيه عاقبة هذه الأعمال . »

فقاطعه سانشو قائلا : « صدقت يا سيدي السنيور وبالحق نطقت » ثم أنهضه واركبه على عنبر المسكين الذي كان قد تضعضع



ايضاً من صدمات الطواحين والسقوط الذى أعقبها .

وبعد ان سارا شوطاً قال سانشو لسيده « والآن ياسيدي اظن انه قد حان وقت الغداء »

فرفض دون كيخوتي ان يأكل شيئاً قائلاً . « ان من دواعى الشرف لشقاليه الرحال ان يبقى شهراً كاملاً بدون طعام ». ولكنه اذن لسانشو بأن يأكل لانه لم يكن شقاليه . ففتح سانشو الخرج وأخرج كفايته . وكان سانشو بعكس دون كيخوتي من كل الوجوه . فكان قصيراً سميناً لا يتخيل شيئاً ؛ ويحب بساطة العيش والحياة المادية .

قضيا تلك الليلة مع بعض رعاة المعز فقدموا لهما عشاء جيداً معظمه من لحم المعز المشوي على النار واكرموا مثواهما . وفي الصباح استمرا في سفرهما طلباً للغزو والفتح .

بعد الصمة

وبعد ان سارا بضع ساعات مجتازين غابة كبيرة خرجا منها قبيل الظهر الى مضيق ، ثم الى سهل اخضر مفروش بالعشب والزهور ذات الالوان البديعة ، وفي وسطه جدول من الماء الزلال العذب . فعزما على أن يستريحا من عناء السفر وان يلجآ من شدة حر النهار الى ذلك المكان النضر البهيج . فجلسا على العشب واطلقا سراح عنبر وحمار سانشو ليرعيا ، ثم اخرجا شيئاً من الطعام واكل الخادم وسيده باشتهاء شديد .

ولم يخطر قط على بال سانشو ان جواد سيده — بعدالتعب والمشاق التي صادفها — تبقى فيه همة ونشاط للهرب من مرعاه ، ولذلك لم ير لزوماً لتجشم عناء ربطه فنتج من ذلك الاهمال ان عنبراً رأى رعيلا من أفراس غاليسيا تمر من الوادي وهي لجماعة يتاجرون بين المدن والقرى قد نزلوا هناك تخلصاً من شدة الحر فركض عنبر دون أن يستأذن صاحبه ، وأخذ يخب بسرعة ونشاط للالتحاق بها . ولكن الأفراس تلقت هذا الحصان الغريب بالرفس والعض الى أن قطعت سيوره ووقع السرج عنه . ولما رأى الباعة حصاناً غريباً بين أفراسهم هجموا عليه بالعصى فقطعوا ظهر الحيوان المسكين وعظم صدره بضرباتهم الشديدة حتى سقط على الأرض بحالة محزنة .

فلما لاحظ دون كيخوتي وسانشو ماحل بحصانهما ركضا لمعاونته ، فقال السيد لمرافقه :

« ليس هؤلاء شڤاليه يا سانشو بل هم أجلاف أوباش ، وأنا أستطيع وحدي أن ألقى مائة منهم » •

وكان في أثناء ذلك يركض نحوهم مزمجراً ففعل سانشو فعله



سقوط سانشو بعد الضربة الثانية

فلما رأى جماعة الباعة ان رجلين لا غير هجما عليهم وهم كثيرون رفعوا عصيهم ، وأشبعوهما ضرباً ولكما . وفي الضربة الثانية وقع سانشو ، وفي الثالثة سقط دون كيخوتي بالقرب من عنبر خائر القوى لا يستطيع النهوض .

فخاف الباعة من أن يكونوا قد قتلوا السيد وخادمه وخشوا العاقبة فتركوهما وذهبوا فأسرجوا خيولهم وحملوها البضاعة ثم واصلوا سيرهم بسرعة .

وكان سانشو أسرع من صاحبه الى جمع شعوره ، فالتفت الى ما حوله فرأى سيده على مقربة منه فجعل يئن ويصيح :

« يا سنيور دون كيخوتي ، آه يا سنيور دون كيخوتي ! »

فأجاب الشفالية بصوت خافت ضعيف :

— « مالك يا أخي سانشو ؟ »

— « كم يوماً نحتاج ـ في رأي سيادكم ـ لنسترد قوانا ؟ »

فأجاب دون كيخوتي وهو يئن أنيناً مراً :

— « لا استطيع اذاعين عددها ولكنى اعلم ان ما وقع كان نتيجة خطأ ارتكبته ، فانه لم يكن ينبغي لى ان اشهر حسامى في وجوه رجال ليسوا شفاليه مثلى . وقد جوزيت بهذا العقاب الشديد على مخالفتى قوانين الشفاليه الرحالة . والخلاصة يا أخي سانشو اذا تعرّض لنا في المستقبل أوباش مثل هؤلاء الجماعة


سانشو يسأل دون كيخوتي عن حاله

فلا تنتظر مني ان اسلّ عليهم سيفي فاني لن أفعل ذلك قط. وأما أنت فعليك أن تعاقبهم بالعقاب الذي يمكنك ان تقمه ويسع به قلبك »

فلم يلذ لسانشو المسكين ان يسمع هذا الكلام وقال:

« أيها السنيور! اني رجل مسالم، بارد الطبع؛ ولي امرأة وأولاد كثيرون يجب علي ان اعولهم. ولهذا فاني أحب ان

أصفح عن أعدائي اكثر من أن أقابلهم بالعداء . واسمح لي بان اصرح امام سيادتكم باني قد نويت من الآن فصاعداً ان أصفح عن كل من عاداني ويعاديني أو يميل الى معاداتي ، رفيعاً كان أو وضيعاً ، غنياً كان أو فقيراً ، شريفاً كان أو صعلوكاً بلا استثناء»



دون كيخوتي ومرافقه يتحاوران فيمن منهما يحارب الاوباش

فتنهد دون كيخوتي وقال :

« تمنيت لو كان لي نفس لأتكلم معك بهذا الشأن طويلاً ،

أو ان هذا الألم الذي في ظهري يذهب فارتاح قليلاً . وعلى كل حال اراك ياسانشو تسعى لتقنعني بانك جبان . »

قال سانشو :

« ثق ياحضرة السنيور بقول رجل فقير مثلي ، واعلم بأني احتاج الآن الى قليل من الجص ألصق به ما تفكك من أعضاء جسمي اكثر من احتياجي الى الكلام الطويل . اجتهد في ان تنهض ، ودعنا نساعد عنبراً على الوقوف ، وان كان لا يستحق المعونة لانه سبب كل هذه المصائب التي اصابتنا . وماكنت أتوقع هذه من عنبر ، ولكن صدق المثل القائل : لاتقل انك تعرف شخصاً حتى المعرفة الا بعد ان تأكل معه اثني عشر كيلو من الملح »

قال دون كيخوتي :

« كف عن الشكوى ياسانشو ، واجمع انت أيضاً قواك لنفحص حالة عنبر ، اذ ان الفرس المسكين قد أصابه من الالم أضعاف ما أصابنا »

وبعد ان أن سانشو ثلاثين أنة ، وتأوه ستين مرة ، ولعن الساعة التي خرج فيها من بيته مائة وعشرين لعنة ، استطاع النهوض وتمكن من ان يتمسك في مشيته ، فتأكد لديه ان دون كيخوتي لايستطيع المشي مطلقاً لأن جنبيه كانا قد تضعضعا من شدة الضرب . ومن حسن الحظ ان الحمار لم يصب بأذى لأنه كان بعيداً عن مكان المعمعة ، فأركب سيده على الحمار بصعوبة ، ثم

وربط عنبراً بذنب الحمار ومشى أعرج متثنياً يلمس الارض بيديه باحثاً عن الطريق العام .



دون كيخوتي راكباً حمار مرافقه

الفصل الرابع

ما كاد سانشو وسيده يقطعان مسافة طويلة حتى اهتديا الى الطريق العام ، وهناك شاهد سانشو عن كثب فندقاً حقيراً ، فطار صوابه من الفرح ، واخبر سيده بهذا الخبر السار . فقال له سيده :

« يجب أن يكون هذا قصراً »

فاكد له سانشو بكل ما لديه من البراهين انه فندق . ولكن دون كيخوتي لم يصدق الا ما توحيه اليه مخيلته ، وأصرّ على ان البناء الذي رآه سانشو لم يكن الا قصراً . ودام بينهما الجدال والاخذ والرد الى أن قاربا الباب

فلما رأت صاحبة الفندق دون كيخوتي مضطجعاً على الحمار كأنه كيس تبن خرجت من الباب وسألت عما أصابه . فأجاب سانشو بأنه سقط عن صخر عال فارتضت ضلوعه . ولما كانت صاحبة الفندق امرأة ذات طباع حسنة ومحبة لعمل الخير اسرعت مع ابنتها والخادمة ماريتورنا فرفعن دون كيخوتي ووضعنه على سرير في أحسن غرفة من الفندق ، وكانت هذه الغرفة فيما مضى محلاً لخزن التبن وغير ذلك من مؤن الفندق . ثم وضعت له مع ابنتها لبخات ولزقات من الرأس الى القدم ، والخادمة ماريتورنا تحمل لهما الشمعة لتستضيئا بنورها. وبينما كن يشتغلن بهذا العمل



صاحبة الفندق وابنتها وخادمتها يضمن اللبخات لدون كيخوتي

قال لسانشو ان جروح سيده كثيرة ، وفي كل مكان من جسده؛ ويظهر انها نتيجة ضرب ولكم شديدين اكثر من انها ناشئة عن سقوط من محل عال .

فأجاب سانشو : « لا ، ليس في المسألة ضرب أو قتال ، وانما حدثت الجروح من الاصطدام برءوس وزوايا الصخور الحادة . وهل يمكنكن ان تعصبن جبينه بربطات من القماش النـاعم التى تصلح بلا شك لأن توضع على شخص آخر ؟ »

فسألته صاحبة الفندق : « ماذا تقول ، وهل أنت سقطت أيضاً ؟ »

فأجاب سانشو: « لا . لست متألما من سقوط بل من الخوف لأني لما رأيت سيدي يتدحرج الى أسفل الهـاوية شعرت بتأثر عظيم حتى أحسست بانني أصبت بالف حربة شديدة . وفعلا علمت بعـد ذلك بأن ما أصابني من الألم والجروح لا يقل عما أصاب دون كيخوتى . »

فسألته صاحبة الفندق : « ماذا تدعو هذا الرجل ؟ »

فقال : « اسمه دون كيخوتى من مقاطعة المانش وهو شفاليه رحال ، ومن خير رجال الشفاليه وابسلهم ومن الذين لم ير العالم مثلهم أبداً . »

فسألت الخادمة بتعجب : « أرجو منك ان تخـبرنا ما هو الشفاليه الرحال ؟ »

فقال سانشو : « الا تعرفين ذلك ؟ الشفاليه الرحال هو ... نعم هو . . نوع من المخلوقات ، يُضرب اليوم بالعصا ويصير

امبراطوراً غداً ، وهو الذى يشقى اليـوم ويحصل في الغد على تيجان وجزر ، ولا أعلم ماذا سيعطى مرافقه منها . »

جرى هذا الحديث على مسمع من دون كيخوتى ، وقد كان مصغياً له بانتباه عظيم . فنهض من فراشه بقـدر ما استطاع ، وأمسك بيد صاحبة الفندق ، وقال لها بعبارة هي غاية في الرقة واللطافة :

« ثقي أيتها السيدة النجيبة ان الخدمة التي أديتها لي ستبقى منقوشة في حافظتي الى الابد، وسأذكرها ما دام فيّ عرق ينبض. ولولا انى مرتبط من قبـل بتلك السيدة التي لا أذكر اسمها الا بكمال الخشوع والاحترام لـكانت عينا هذه الآنسة الفتانة أبدلتا حريتي باستعباد . »

فلما سمعت صاحبة الفندق وابنتها هـذا الكلام جمدتا في مكانهما كانهما أصيبتا بصاعقة، لأنهما لم تفهما منه شيئاً . ولكنهما افترضتا ان هذا الـكلام غير المفهوم ربما كان نوعاً من التشكر والتودد ، فشكرتاه على ذلك وتركتاه لينام .

وفي الصباح شعر بقوة جديدة وتحسن في حالته ، فعزم على ان يستمر في سفره ، لأنه كان يقول اذا تأخر دقيقة واحـدة يحرم العالم من معاونته وحمايته حرماناً كبيـراً . وكان سانشو لايزال نائماً فأعانه على النهوض حتى لبس ثيابه ، ومن هناك نزل الى فناء الفندق وأسرج عنبراً وبومله ثم امتطى جواده وقبض

على حربة كانت في احدى زوايا الفندق لكي يستعيض بها عن الرمح الذي كسر في معمعة الطواحين الهوائية، فاستدعى صاحب الفندق وقال له :ـ

« يا صاحب القصر ! اني مدين لك بالشكر الجزيل على ما ألفيته في قصرك من حسن العناية ورقة الشعور ، وسأذكر لك هذا الصنيع الجميل طول حياتي • على اني أرجو منك اذا اعتدى عليك أحد من الأشرار الجاحدين ان تدعوني حالاً لانتقم لك منه كما تريد . »

فاجاب صاحب الفندق برزانة :

« أيها السنيور الشفاليه !اني مستعد تمام الاستعداد لأن أنتقم ممن يعتدي علي ، ولا أرى حاجة لازعاج حضرتك بشأن هذه المسألة • وكل ما أريده من سيادتك هو ان تدفع لي ثمن عشائك وعشاء خادمك ، وكذلك ثمن التبن والشعير لخيلكما مع أجرة المبيت . »

فصاح دون كيخوتي : « أجرة المبيت ؟ ولماذا ؟ هل هذا فندق ؟ »

فقال صاحب الفندق : « لاشك في انه كذلك ، وانه فندق مفتخر أيضاً . »



صاحب الفندق يطالب دون كيخوتي بالاجرة

فقال دون كيخوتي : « اذن أراني مخطئاً فيما كنت أظن ، لأني اتخذته كقصر . وما دام هـذا فندقاً وليس بقصر فكل ما عليك ان تفعله هو ان لا تلح في طلب الدفع اذ من المستحيل علي ان اخطو خطوة واحدة خلافاً لقواعد رجال الشفالية الرحالين، ولم أعثر في جميع التواريخ التي قرأتهـا على ان رجال الشفالية الرحالين دفعوا مرة واحدة ثمن طعامهم أو أجرة مبيتهم في أي فندق كان حيث يستريحون من عناء السفر . وفي الحقيقـة فأن الضيافات التي يقبلونهـا في مثل هذه الأماكن لا تكون شيئاً بالنظر الى ما يلاقون من الـكوارث والأهوال عند نشوب المعارك . »

فاجاب صاحب الفندق العنيد : « حسن ما تقول ، ولـكن اعلم يا حضرة السنيور ان كل ما أريده ان تدفع لى دراهمى . »

فصرخ دون كيخوتى : « تباً لك من رجل أحمق . لا تتكلم كلمة بعد عن هذا الأمر »

ثم همز عنبراً وهز حربته وخرج من الفناء دون ان يلتفت ليرى اذا كان مرافقه قد تبعه أم لا . ثم قطع مسافة طويلة مبتعداً عن الفندق .

ولما رأى صاحب الفندق ان دون كيخوتى قد خرج دون أن يدفع درهماً واحداً ادار وجهه نحو سانشو وطلب منه أن يدفع عن نفسه وعن سيده . فقال سانشو ان سيده لم يشأ ان يدفع،

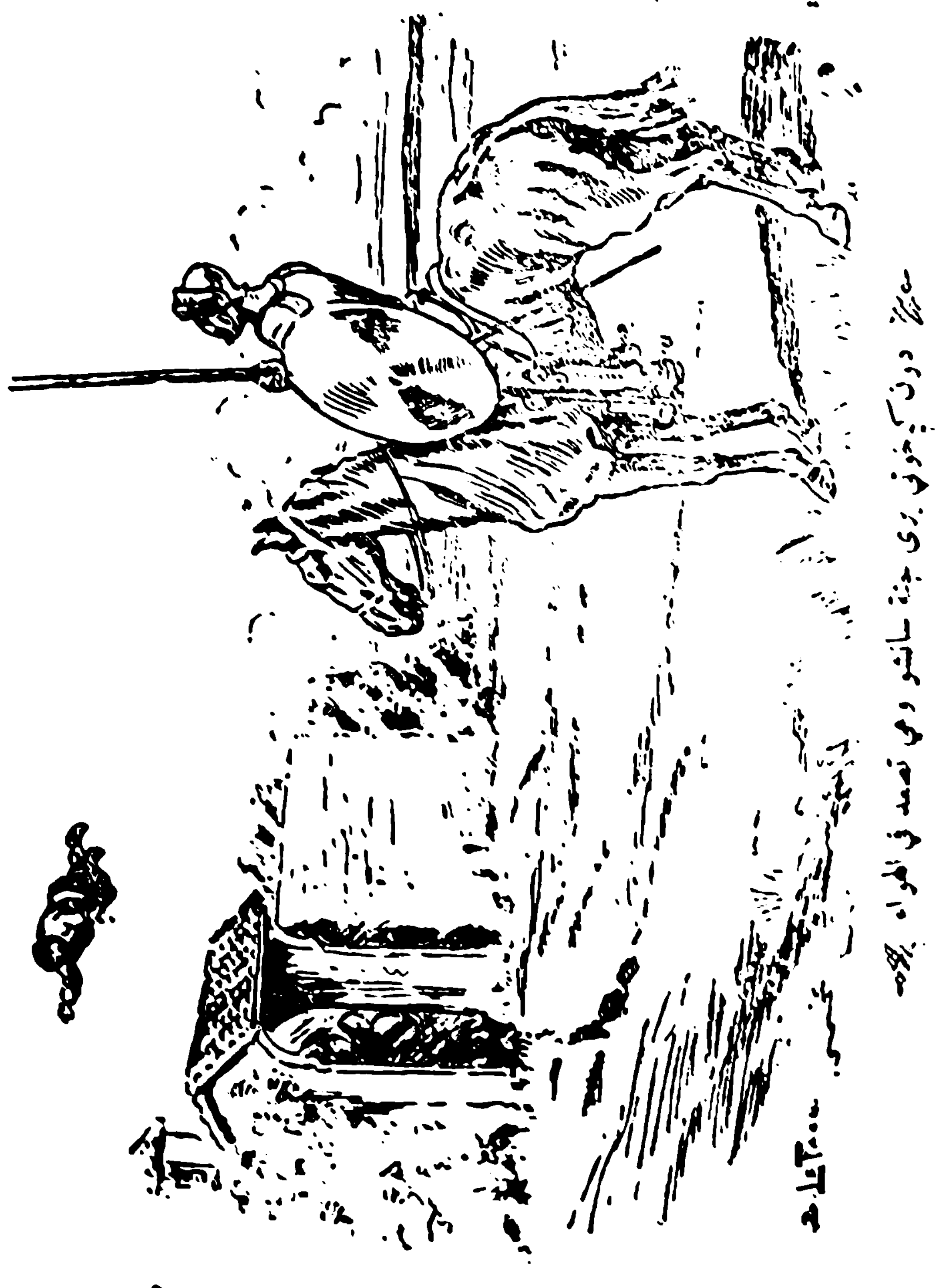
وبالطبع سيحذو هو أيضاً حذوه . وان قواعد الشڤاليه التي تسري على الشڤاليه أنفسهم تسري أيضاً على مرافقيهم . فغضب صاحب الفندق وقال له بلهجة التهديد والوعيد « ان ما ينبغي لك ان تعمله هو تأدية ما عليك وعلى سيدك من الدين ، والا ندمت فيما بعد حيث لا ينفع الندم . »

وبينما كان سانشو يصرّ على عناده جاء الى الفندق — لسوء الحظ — أربع حائكات من سكوفي وثلاثة عمال من معمل الابر بقرطبة وحمالان من اشبيلية ، وقد اتفق وصولهم جميعاً في وقت واحد . ولما اخبرهم صاحب الفندق بما جرى عزموا على ترويح أنفسهم بشيء من المزاح على حساب سانشو المسكين . فأنزله بعضهم عن حماره وذهب الآخرون فجاءوا بلحاف كبير فقبضوا على زواياه بايديهم ووضعوا فيه سانشو وعندئذ شرع هؤلاء البرابرة يقذفون به الى الجوّ ثم يستلقونه باللحاف . واستمروا على هذا حتى صاح سانشو المسكين وشعر بألم لا يطاق . وبعد ان دامت هذه اللعبة بضع دقائق ، وصاح سانشو عدة صيحات ، وصل صياحه الى اذني سيده ، فوقف دون كيخوتي وأصاخ بسمعه ، فعرف انه صوت سانشو . وحينئذ



ضيوف صاحب الفندق يلعبون بسانشو لعبة القذف باللحاف

أدار رأس عنبر ليبحث عنه فرأى عن بعد جثة سانشو الضخمة تصعد في الهواء ثم تسقط بسرعة خفيفة ، فكاد يقهقه من



دون كيخوت يرى جثة سانشو وهي تصعد في الهواء

الضحك لو لم يكن ممتلئاً غضباً لسوء معاملة صاحب الفندق .
واستمر سانشو على هذا الطيران الى ان أنهك التعب قوى
معذبيه ، فتوقفوا ، ووقع سانشو على الأرض . ثم لفوه بردائه ،
واركبوه على حماره كالسابق ، فكاد يفقد توازنه مما اصابه من
شدة الألم . فلما رأته الخادمة الشفوقة ماريتورنا على هذه الحالة
ذهبت وأتته بكاس من ماء البئر البارد فتناولها سانشو بكل
اشتهاء ولما وجد فيها ماء اعادها اليها ، فذهبت الخادمة الطيبة
وأتته بكاس من الخمر دفعت ثمنها من عندها . اما صاحب الفندق
فكان قد أخذ خفية خرج سانشو ولذلك لم يمانع في اطلاق سبيله ،
وخرج سانشو مقتنعاً بنصيبه ، لأنه لم يعد وعداً كاذباً وفي
الوقت نفسه لم يدفع شيئاً . غير أنه أدى ماعليه من الدين بالألم
الذي لا يزال في ظهره

فلما التحق المرافق المسكين بسيده شعر بانكسار وألم
جديدين حتى كاد يغمى عليه . ولما رآه دون كيخوتي على هذه
الحالة قال له بلهجة الجد :

« ياسانشو الصادق ! أرى ان هذا الفندق أو بالحري هذا
القصر مسحور . ان أولئك الذين لعبوا معك هذا اللعب الفظيع
ليسوا سوى اشباح جاءت من العالم الثانى . انى متأكد ذلك
تماماً حيث انه لما كنتُ راكباً على عنبر الاحظ ما اصابك من
المصائب المحزنة عن كثب شعرت باني لا أستطيع الحركة من
مكانى مطلقاً ولم يمكني ان اترجل او استفز عنبراً على المشى . ولو لم

أكن مقيداً بفعل السحر لكنت انتقمت لك من هؤلاء الصماليك انتقاماً مراً لا ينسونه طول حياتهم . »

فاجاب سانشو « اما من جهتي فاني انتقم لنفسي انتقاماً حسناً لو كنت مقتدراً ، سواء كنت شڤاليه أو غير ذلك ، ولكني ويا للأسف لم استطع . ومن رأيي ياحضرة السنيور ان هؤلاء الذين كانوا يستأنسون على حسابي ليسوا اشباحاً ولا عفاريت بل هم اناس من لحم وعظم . اما عدم مجيء سيادتكم الى معاونتي اما راكباً أو ماشياً فليس سببه السحر بل له سبب آخر . اما الآن وقد تبين لنا ان الوقائع التي نحن في طلبها لا تبعث لنا سوى آلام في الظهر وجروح في الجسد وخض في اللحاف فأحسن شيء يجدر بنا ان نفعله اذا اتبعت رأي مرافقك الحقير هو ان نعدل عن فكرة الشڤالية الرحالة ونعود الى قريتنا باسرع ما يمكن . »

فقال دون كيخوتي « تمهل ياسانشو وكن صبوراً . ان ما تعلمه عن شرف حرفة حمل السلاح والغاية السامية التي ننشدها قليل جداً . فلا تخف وكن رابط الجأش ودعنا نسير الى الامام . »

فلم يقتنع المرافق ولكنه وافق أخيراً على المشي بدون رضى منه فسارا يتحادثان في هذا البحث . وانهما لكذلك شاهد دون كيخوتي عن بعد عجاجاً ثائراً الى عنان السماء يتقدم نحوهما ببطء فالتفت الشڤاليه نحو مرافقه وقال له بلهجة الظافر المنصور « أنظر ياسانشو ! ان هذا اليوم لمن اسعد الايام التي خبأها لنا الطالع لأني سآتي بمعجزات سوف يذكرها التاريخ في صحائفه

البيضاء وتفتخر بها الأجيال الآتية . هل ترى العجاج الثائر هناك ياسانشو ؟ انه عجاج جيش عرمرم سائر نحونا . »



دون كيخوتي يستبشر برؤية عجاج ثائر الى عنان السماء

فقال شانسو «إذا كان الامر كذلك يجب ان يكون هناك جيشان . الا ترى ياحضرة السنيور على طول ذلك الطريق الآخر عجاجاً متكاثفاً قد سدّ الآفاق يشبه الاول في سيره وهو آت الى هذه الجهة أيضاً ؟ »

فادار دون كيخوتي وجهه نحو تلك الجهة فتحقق لديه صدق قول مرافقه وكاد يطير من الفرح لأنه اعتقد بدون شك ان هذين الجيشين متعاديان وقد جاءا الى هذا السهل المترامي الاطراف للاشتباك في معركة فاصلة

والحقيقه هي ان هذين العجاجين هما عجاجا قطيعين كبيرين من الغنم جاءا من جهتين مختلفتين نحو نقطة واحدة . ولما كان الغبار كثيفاً جداً غاب الغنم عن الابصار . فلما أكد دون كيخوتى لمرافقه بأن هناك جيشين عظيمين صدق ذلك سانشو وقال « ياحضرة السنيور ماذا يجب ان نعمل ؟ »

فأجاب دون كيخوتى « ان ما يجب علينا ان نعمله هو ان نحاز الى الجيش الضعيف ونعاونه على القوي بكل ما لدينا من حول وقوة . أما الجيش الذي تراه قادماً نحونا فهو بقيادة اليفانفارون الامبراطور الاعظم والآخر بقيادة عدوه ملك كارامانت المدعو بانتابولن ذا الذراع العريان وهو يلقب بهذا

اللقب لأنه لا يذهب الى الحرب الا وذراعه الايمن عريان . »

فسأل سانشو « وما هو سبب العداء بينهما ؟ »

فأجاب دون كيخوتي «لأن هذا اليفانفارون وثنى متعصب وقد ابتلى بحب ابنة پانتاپولين الحسناء وهي مسيحية وبالطبع لم يرض والدها ان يزوجها من هذا الوثنى لأنه لم يوافقه على ترك عوائده الوثنية واعتناق الدين المسيحي . »

فقال سانشو : « انه محق في عمله ونعم ما فعل . وحق لحيتي أنا ممن يريدون بانتابولن . »

فقال دون كيخوتي : « لا شك في ذلك . والآن أصغ الي ياسانشو فاني أريد ان أذكرلك أسماء رجال الشفاليه الذين ستراهم في هذين الجيشين ولنصعد على هذه الرابيـة لأجل ان نشرف عليهم تمـاماً . »

فتبع سانشو سيده الى قمة رابية صغيرة وهناك بينما كان فاتحاً فاه من الحيرة والدهشة سمع دون كيخوتى يذكر له عدداً لا يحصي من الشفاليه والأمراء مع الامم التي ينتسبون اليها ويقودونها. فلما ضجر من كثرة الكلام أخذ يدير نظـره يميناً ويساراً عله يستطيع ان يميز هؤلاء الشفاليه الابطال والجبابرة الفحول الذين ذكر اسماءهم سيده ، ولمـا لم يرشيئاً قال له :

« أيها السنيور ! لم أر لا شڤاليه ولا جباراً واحداً حتى ولا أحداً ممن ذكرت اسماءهم »



دون كيخوتي ومرافقه وقد صعدا الى الرابية ليكتشفا الجيشين

فقال دون كيخوتي : « ماذا تقول ياسانشو ؟ الا تسمع صهيل خيل الحرب وأصوات المزامير وضرب الطبول ؟ »

فاجاب سانشو « لم اسمع صوتاً ما ! اللهم الا مأيء الحملان واصوات الغنم . »

وفي الحقيقة كان قد صار القطيعان على مقربة منهما

فقال دون كيخوتي : « هـذا لأنك جبان يا سانشو : ان الخوف يزعج الحواس غالباً ، فيظهر للخائف اشياء غير التي هي امامه حقيقة . فاذا كنت تخاف الى هذه الدرجة فتقهقر ودعني اغير وحدي »

ولم يكد دون كيخوتي يتم كلامه حتى همز جواده عنبراً ورفع حربته وانحدر من الرابية بسرعة البرق

فصاح سانشو والغيظ قد أضاع شعوره : « ياسنيور ، ياسنيور . . . ياحضرة السنيور دون كيخوتي ! ارجع ولا تتقدم ، اضرع اليك ان ترجع . ان الذين حملت عليهم ليسوا سوى خرفان وحملان ! أتوسل اليك أن ترجع . »

ولكن دون كيخوتي لم يعره اذناً صاغية ، ولم يلتفت الى هذا التوسل والتضرع ؛ بل هز حربته وحمل على الخرفان كأنها اعداؤه اللدودة ، وصاح بأعلى صوته :



دون كيخوت منحدر من الرابية لمهاجمة الجيش

« هوي . هوي . اتبعوني يا رجال الشمالية الذين يحاربون تحت لواء بانتابولن الباسل ذى الذراع العريان . »

فلما رأى الرعاة ان قطعانهم تشتت ودهس قسم من الغنم

صاحوا به ليكف عن عمله الجنوني . وعندما تحقق لديهم ان صياحهم وكلامهم لم يأتيا بنتيجة أخذوا يقذفونه بوابل من الحجارة ، فلم يعبأ بها دون كيخوتي ، بل ازداد هياجاً ، وكرّ



الرعاة يقذفون دون كيخوتي بالحجارة

وفر ، طالباً أليفانفارون الى البراز وجهاً لوجه.

وفيما هو في هذه الحالة أصابه حجر كبير كاد يصرعه ، فأخرج من جيبه زجاجة تحتوي نوعاً من المرهم ، وكان قد أدخرها لمثل هذه الأوقات لاعتقاده بأنها تمنع عنه الأذى فوضعها على شفتيه وفي هذه المرة ايضاً اصابه حجر آخر على فمه فحطم الزجاجة وسحق اصبعين من أصابع يده وأطار ثلاث اسنان أو أربعاً من أسنانه الأمامية وكانت هذه الضربة التي أتمت فعل الضربة الأولى قد قلبت الشفاليه عن ظهر حصانه ، فوقع على الأرض يتخبط بدمه

فلما رآه الرعاة قد سقط الى الأرض ظنوه قتل أو على وشك أن يموت ، فجمعوا قطيعهم بسرعة ، والتقطوا القتلى والجرحى وكان عددها سبعة ، وفروا هاربين دون ان يلتفتوا الى خلف.

وفى أثناء كل ذلك كان سانشو المسكين واقفاً على قمة الرابية ينتف شعر لحيته ويلعن اليوم والساعة اللذين عرف فيهما دون كيخوتي

ولما رآه قد سقط ، وتأكد من أن الرعاة ابتعدوا عن ميدان القتال ، نزل ليرى ما أصاب سيده ، فوجده في حالة مخيفة ، ولكنه لم يفقد حواسه بتاتاً.

فقال له سانشو مؤنباً « ياسنيور دون كيخوتي : ألم أتوسل اليك أن ترجع ؟ ان هذا قطيع من الغنم وليس جيشاً . »

فركع دون كيخوتي وقال متنهداً « واأسفاه . واحسرتاه ! كيف ان هذا الساحر يستطيع أن يبدل بسهولة خلقة البشر بالصورة التي يريدها ! ارجوك يا سانشو بجي لك أن تركب حمارك وتتبعهم مسافة قليلة ، فانك تراهم انقلبوا من صورة الخرفان وصاروا رجالاً من البشر كباراً اشداء كما وصفتهم لك ، ولكن لا . . . لا تذهب الآن فاني بحاجة الى معونتك . تقدم وانظر كم سناً سقط من فمي ، ويظهر لي انه لم يبق بين فكي ولا سن واحدة

أما سانشو فقد استند الى حماره ووضع يده على خده محتاراً تائهاً فى بحر من الهموم والافكار ، ولبث لا يتحرك من مكانه . فلما رآه دون كيخوتى جامداً لا يتحرك عزم على النهوض بنفسه فنهض بصعوبة واضعاً يده اليسرى على فمه خوفاً من أن تسقط اسنانه بأجمعها وقبض على لجام عنبر بيده الأخرى ومشى متوكأً نحو مرافقه وقال :

« اعلم يا سانشو ان من يضرب بالسياط ليس كمن يعدها . وعليه فلا حاجة لك ان تشكو مما أصابنى من المصائب والنوائب لأنه لم يصبك شيء منها . »

فقال سانشو « ألم يصبنى شيء منها ؟ اذن قل لي بالله عليك ألم يكن ابن أمي ذلك الذي خض في اللحاف منذ برهة ؟ وهل كان الخرج الذي أضعته اليوم ملكاً لغيري ؟ »

فصاح دون كيخوتي « ماذا تقول ! هل ضاع الخرج ؟ »

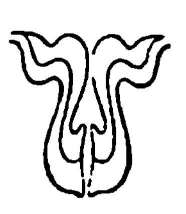
فأجاب سانشو « نعم »

فسأل الشفاليه « اذن سنبقى بدون عشاء هذه الليلة ؟ »

فأجاب سانشو مستهزءاً « لا . اننا سنتعشى من عشب هذه الحقول التي تعرفها سيادتكم حق المعرفة وهو العشب الذي اعتاد ان يأكله الشفاليه الرحالون السيئو الطالع كما قلت لى غير مرة . »

فرد دون كيخوتي هذه الحقارة ثم قال « اني افضل فى هذه الساعة كسرة من الخبز وقطعة من السمك على جميع عشب الأرض. اركب حمارك واتبعني . »

فتنهد سانشو وتحسر ثم ركب حماره وقال « ليكن ما تريد سيادتكم . وعلى كل حال هيا بنا لنذهب من هذا المكان ونسعى لنجد لنا مبيتاً هذه الليلة . وانى اسأل الله ان يجعل المكان الذي سنبيت فيه خالياً من الخض فى اللحاف والاشباح المشئومة والجبابرة الغدارين والجيوش المسحورة . »



الفصل الخامس

وبينما كان دون كيخوتي وسانشو يسيران على طول الطريق شاهدا عن قرب رجلاً راكباً على حمار آتياً نحوهما وعلى رأسه شيء يضيء كالذهب الوهاج

فقال دون كيخوتي لمرافقه « انظر يا سانشو : لقد تأكد عندي ان جميع الامثال صحيحة لأنها حكم ولم تظهر الى الوجود الا بعد تجاريب وخبرة طويلة ، وأخص منها بالذكر المثل القائل « كلما داويت جرحاً سال جرح » واذا لم أكن مخطئاً فاني أرى هناك رجلا يلبس على رأسه خوذة مامبرينو • ألا ترى شقاليه راكباً على جواد أشهب وعلى رأسه خوذة ذهبية ؟ »

فأجاب سانشو « لا أرى شيئاً مما تقول • وانما أرى رجلا راكباً على حمار رمادي اللون كحماري ، وعلى رأسه شيء يضيء . »

فقال دون كيخوتي « نعم هذه هي خوذة مامبرينو • تنح يا سانشو ودعني أنازله . فسوف تراني قد أحرزت النصر في هذه المهمة وحصلت على الخوذة التي طالما رغبت كثيراً في اقتنائها ، ولا حاجة الى اشتراكك معي في القتال • »



حامل خوذة مامبرينو

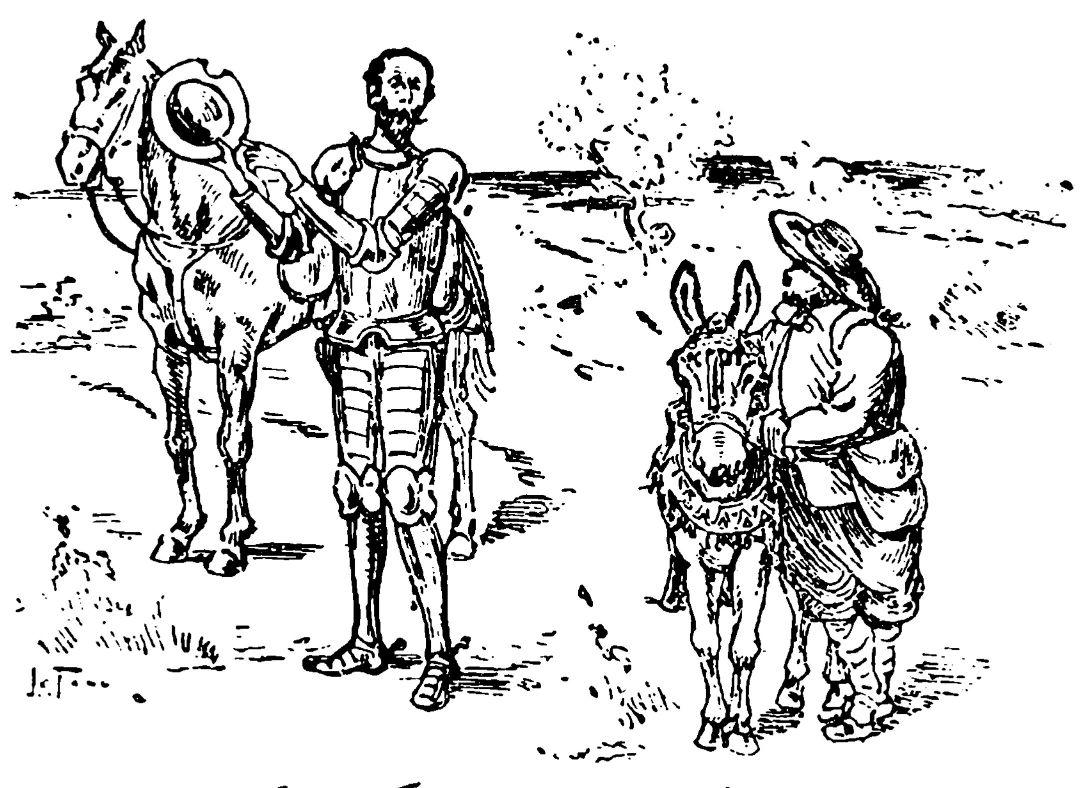
وقدآن ان نبين للقاريء حقيقة ما ظنه دون كيخوتي خوذة وجواداً وشقاليه وذلك كما يأتي : —

كان في ذلك الجوار قريتان صغيرتان تقرب احداهما من الاخرى وكانت احداهما صغيرة جداً لا يوجد فيها مزين اما في الثانيـة فيوجد مزين واحد . وكانت العادة اذا أراد احد سكان القرية الصغرى ان يحلق شعر لحيته أو يحتجم يضطر الى استدعاء

مزين القرية الـكبرى . ففي اثناء مروردون كيخوتي وسانشو من هذا المـكان كان هذا الرجل عائدا من القرية الصغرى را كباً على حماره ومعه طسته النحاسى . فلما نزل المطر أراد أن يحفظ قبعته التي كانت جديدة فوضع الطست على رأسـه فوق القبعة وكان الطست جديداً ومصقولاً صقلا حسـناً بحيث يرى بريقه من مسافة ميل واحد .

وعندما تقدم المزين من دون كيخوتي وكز هذا عنبراً وهجم عليه بكل قوته شاهراً رمحه يريد طعنه في صدره • فخاف المزين المسكين من هذا البلاء المبرم الذي انقض عليه كالصاعقة ولم ير وسيلة لانقاذ حياته سوى الفرار فنزل عن حماره وصار يعـدو كالريح بين التلال والصخور بكل سرعة الى أن بعد عن مكان المعمعة ولاذ بالنجاة ، غير ان الطست كان قد وقع عن رأسه حينما كان مهتماً بنفسه •

فسر دون كيخوتى من هـذا النصر العاجل ونزل فالتقط الطست وناوله الى سانشو ليراه . فلما رآه سانشو قال « انه من احسن الطسوت المستعملة لغسل اللحى ، وان قيمته تساوى دينارين» ثم اعاده الى سيده فوضعه دون كيخوتى على رأسه حالا واداره يمنة ويسرة باحثاً عن المظلة فلما لم يجدها قال : « يقتضي



خوذة مامبرينو في يد دون كيخوتي

ان رأس الوثني الذي صنعت له هذه الخوذة الفاخرة كان بلا شك كبيراً جداً . ولكن مما يوجب الاسف ان النصف الآخر منها مفقود . »

ثم قال بلهجة الغضب « لماذا تضحك يا سانشو ؟ »

فأجاب سانشو مستجمعاً رزانته الأولى « يا سيدي . تصورت حجم رأس الوثني الذي كانت عنده هذه الخوذة فضحكت ولكن القسم الباقي منها يشبه طست مزين . »

فقال دون كيخوتي « اتعلم يا سانشو ماذا افتكرت أنا ؟ يظهر لي ان هذه الخوذة المسحورة وقعت بيد أحد أوباش الناس بسبب حادث غريب مجهول ولما كان هذا لا يعرف قيمتها الحقيقية

ورأى أنها من الذهب الخالص أذاب النصف الناقص منها وباعه سبيكة سبيكة ثم صنع القسم الباقي على هذه الصورة التي تشبه طست المزين حقيقة كما تقول . ولكنّ تبدل شكل الخوذة على الصورة التي تراها لا يهمني أبداً لأننا متى دخلنا أول مدينة نجد فيها صائغاً ماهراً سأطلب منه اصلاحها وصقلها لكي ترجع جديدة كما كانت في أول عهدها . أما في الحال الحاضرة فأني سأضعها على رأسي لتحفظني من الحجارة على الأقل . » ثم وضعها على رأسه

فاجاب سانشو « ليكن ما تريد سيادتكم . ولكن قل لي ياسيدي ، ماذا نعمل بهذا الجواد الأشهب الذي يشبه الحمار ؟ وحق لحيتي انه لحيوان فاخر ! »

فقال دون كيخوتى «ليس من عادتي أن أسلب الذين أنتصر عليهم ، وليس من عادات الشفاليه ان يأخذوا خيل الأعداء المغلوبين ، فهم يتركونها في محلها . وأنت ياسانشو لا تشغل بالك بالحصان أو بالحمار ـ مهما أردت ان تدعوه ـ لأنه بعد ذهابنا من هنا سيعود صاحبه للبحث عنه . »

فقال سانشو وهو منكسر الخاطر « لعمر الحق ان قوانين الشفاليه صارمة جداً ما دامت لا تسمح لي بتبديل حماري بجماد آخر . ومع هذا أرجو من سيدي ان يخبرني اذا كنت أستطيع أن أبدل البرذعة لأنها أعجبتني كثيراً ؟ »

فافتكر دون كيخوتي برهة ثم قال «هذه مسألة لا أقدر أن أجزم فيها . ويظهر لي ان تبديل البراذع وبقية التجهيزات أمر مباح اذا كانت هنالك ضرورة تقضي به . »

فانفرجت كئابة سانشو وقال « نعم أنا مضطر الى ذلك . وكيف لا أكون مضطراً ما دمت لا أقدر أن أرمم برذعة حماري بنفسي في هذه الأرض القفراء ؟ »

ولما أتم سانشو كلامه ذهب وبدل البرذعتين بسرعة البرق، ثم سارا في طريقهما وقد ازداد منظر بومله رونقاً وبهاءً عما كان عليه من قبل



سانشو بانزا بعد تبديله برذعة حماره

الفصل السادس

بينما كانت تجرى هذه الحوادث – التي نقلناها – كان صديقا دون كيخوتي – القس والمزين – يفكران بطريقة يرجعانه بها الى بيته . وقد توصلا أخيراً الى اقتفاء أثر الشقاليه الرحال الذي صار يدعى بعد فقـده اسنانه الامامية بالشقاليه ذي الوجه الحزين . وذلك أنهما سافرا ذات صـباح للبحث عنه ، وفي أثناء سفرهما اكتشفا طريقة لحمله على الرجوع الى بيته .

أما الطريقة فهي كما يأتي : – لقد عزما على ان يبدل القس هيأته ويتزيا بزي فتاة مهجورة تائهة ويكون المزين مرافقاً لها . ولأجل ذلك ذهبا الى أحد الفنادق وكانا يعرفان صاحبته فتكلما معها في الغرض الذي جاءا لأجله، فاستحسنت عملهما ، وأعارتهما الثياب اللازمة ، وقصت لهما شعر ذيل بقرة كبيرة عندها ليتخذه المزين لحية لأنه اعتاد ان يبكر في حلق لحيته كل يوم . وبعد أن يتزيا كلاهما بالصورة التي قرراها يقتفيان أثر دون كيخوتي الى أن يعثرا عليـه . فترتمي حينئذ الفتاة على قدمي الشقاليه الصالح وتلتمس منه المعونة على ما انتابها من الظلم والحيف، وان قوانين الشقاليه تمنع دون كيخوتي ان يرد هذا الطلب



القس والمزين يستعيران ثياباً من صاحبة الفندق

وقد تعدلت هذه الخطة فيما بعد ، لأنهما صادفا في طريقهما شخصين غريبي الزي والأطوار تدل ملامحهما على كثرة المصائب والآفات التي أصابتهما

كان أحدهما شاباً يدعى (كاردينو) قد اختل شعوره من الاعمال الفظيعة التي ارتكبها معه صديق محتال ، وكانت نتيجتها اختطاف خطيبته . ولما ازداد وسواسه خرج يطوف في جبال لاسكوند يأكل من عشب الأرض ويشرب من مياه الينابيع الى أن جرته الصدف الى الاجتماع بزوجة صديقه الغادر دون أن يعرف أحدهما الآخر . وهذه الزوجة الفتاة التي ذاقت الامرّين من سوء معاملة زوجها وفظاظته خرجت هائمة على وجهها تشكو من قسوته وأعماله البربرية فجعلت تطوف في البرية متزية بزي شاب قروي

فلما صادف القس والمزين هذين الشخصين المنكودي الحظ عاملاهما بلطف ومروءة ، فأنس هذان بهما ، واعتمدا عليهما في كل شيء حتى انهما قررا ان يسافرا معهما . ابتدر القس الحديث وعرّف رفيقيهما الجديدين بنفسه وبالمزين وذكرلهما السبب الذي جاءا من أجله لاقناع صديقهما وحمله بالحيلة على الرجوع الى بيته. فوافقت السيدة الصغيرة التي كانت تدعى دوروته ـ وقد سمياها الاميرة ميكو ميكونا ليرن اسمها في أذني الشقاليه الخيالي ـ على ان تتبرع بتمثيل دور الفتاة المبحوث عنها في خطتهما ، ولبست حالاً الثياب التي أخذها القس من صديقته صاحبة الفندق

وبعد زمن قصير ساعدهم الحظ على ملاقاة دون كيخوتي وسانشو بانزا . فتمكنوا بسهولة من اقناع الشقاليه بأن مكان الجبار ـ الذي أساء معاملة الأميرة ، والذي استنجدوه على قتله ـ يبعد ألفي مرحلة عن المكان الذي هم فيه ، وأشاروا الى الطريق المؤدى الى قرية دون كيخوتي

ولما كانت هذه السفرة تستغرق أكثر من يوم واحد عزموا على تمضية تلك الليلة في فندق . وكان على جانب من الطريق ذلك الفندق الذي اقشعر سانشو من رؤيته لأنه نفس الفندق الذي أوقف فيه وخض في اللحاف . ولكنه تأكد من عدم وجود علائم تدل على تجديد ذلك اللعب الفظيع ، لان القس كان يقود

دوروته

الجمع فضلاً عن ان جميع الاستحضارات اللازمة لمبيت القوم كان قد أتمها صاحب الفندق بصورة ترضى الجميع . فنوّموا دون كيخوتي حالاً لأنه كان محتاجاً الى النوم والراحة أكثر من كل شيء

جاس بقية القوم ـ ما عدا سانشو ـ في القاعة السفلى مع صاحب الفندق وعائلته . وبعد ان تناولوا طعام العشاء شرعوا يتسامرون ويقصون القصص والحكايات لتمضية السهرة . وفيما هم كذلك اذا بضجة وعربدة مخيفتين سمعتا من الغرفة التي كان فيها دون كيخوتي . وبعد بضع ثوان جاء سانشو متدحرجاً من السلم الى أسفل بسرعة البرق صائحاً :

« النجدة ، النجدة ! لقد اشتبك سيدي مع الجبار عدو الاميرة ميكو ميكونا ! لم أر قط في عمري مثل هذه الحرب الضروس . رأيت سيدي بأم عيني يقطع رأس الجبار ويدحرجه على الارض كالمصراع. وان دم الجبار يجري في كل البيت ورأسه يسبح في وسطه . ياله من رأس ! لا يوجد في اسبانيا ظرف للخمر اكبر منه ! »



سانشو يخبر أهل الفندق بما جرى لسيده في غرفة نومه

فصاح صاحب الفنـدق « يارحيم ! ... هذه هي الظروف المملوءة بأجود الخمر ، انه يقطعها الآن قطعاً ! »

فهجموا كلهم على غرفة دون كيخوتي وهناك رأوا منظرة يالها من منظرة ...

بينما كان الشڤاليه نائماً نوماً عميقاً حلم حلماً مزعجاً فنهض من نومه وعلى رأسه قبعة صاحب الفندق الحمراء القذرة ، وقد لف اللحاف على ذراعه اليسرى متخذه درعاً ، وشاهراً سيفه في يده اليمنى . ثم وقف وحلم بأنه ينازل الجبار في معركة دامية ، فشرع يضرب بسيفه يميناً ويساراً ضربات شديدة



صاحب الفندق يشاهد مايفعله دون كيخوتي

وكما قال صاحب الفندق كان يوجد صف من الظروف المملوءة بأجود الخمر ، وهي محفوظة في تلك الغرفة بقرب السرير فهجم عليها الشفاليه الباسل بطعنات وضربات لا تبقي ولا تذر ، فأحدث فيها خروقاً وشقوقاً كبيرة تدفق الخمر منها كالسيل على أرض الغرفة

فلما رأى صاحب الفندق ما حلّ بقرب خمره خرج عن شعوره فانقضّ على دون كيخوتي يريد قتله ، ولو لم يردعه القس وكاردينو ويجرّانه الى الوراء لكان مثل دور الجبار الموهوم حقيقة

وكان دماغ دون كيخوتي الضعيف محتاجاً الى النوم ، فلم يقو على الجلوس ، فأقعده القس وصب على رأسه سطلاً من الماء البارد ، فأفاق من سباته الا أنه لم يفق من حلمه ، لأنه ظن القس الأميرة ميكو ميكونا فركع امامه باحترام زائد

ولقد قهقه الكل من هذا المشهد الغريب ، ما عدا صاحب الفندق وامرأته . وان القس والمزين وكاردينو قاسوا صعوبة شديدة في ارجاع دون كيخوتي الى فراشه ، فنام نوماً عميقاً ، ورجع الباقون الى مكانهم . وبعد جهد جهيد تمكن القس من ارضاء صاحب الفندق بعد ان دفع له ثمن الخمر المهراق والقرب الممزقة

الفصل السابع

أفاق دون كيخوتي من نومه العميق بعد تلك المعمعة المهولة التي اشتبك فيها مع قرب الخمر ، فوجد سانشو واقفاً امام السرير وعلائم وجهه تدل على الحزن والأسف كأنه شڤاليه ذو وجه حزين . وقد حدث لما كان دون كيخوتي نائماً ان جاء الى الفندق ثلاثة مسافرين ، ومن غريب الاتفاق أنه كان بينهم زوج دوروته المدعو دون (فرناندو) و(لوسينده) خطيبة كاردينو التي اختطفها دون فرناندو الغدار . فلما تقابلت الوجوه وقف جميع هؤلاء مبهوتين كالأصنام ثم تلا ذلك أنّ كلا منهم شرح قضيته وما أصابه . وأخيراً ندم دون فرناندو على ما فرط منه ، ووعد بأنه سيقلع عن اعماله الأولى فتصالح مع زوجته. ثم دفع دون فرناندو لوسينده الى ذراعي خطيبها كاردينو ، وهـذا فتح ذراعيه الى دوروثه محبوبته المظلومة

هـذه الحادثة التي سرت الجميع كدرت سانشو وأحزنته ، لأنه كان يحلم بأن سيده سوف يتزوج من الاميرة ميكوميكونا وفي نتيجة ذلك سيستطيع الشڤاليه مكافأة خادمه الأمين فيعينه على الأقل حاكماً على الجزيرة التي طالما صبت نفسه اليها منذ مدة . فقال سانشو « والآن ظهر أن الاميرة ميكو ميكونا

ليست الا امرأة بسيطة تدعى دوروته وليس لها أقل ميزة حتى على أمي . »

فعزّى دون كيخوتي سانشو على كدره بقدر ما يستطيع مؤكداً له بأن هذه الحادثة والحادثة السابقة التي حدثت في هذا القصر حينما جاءا أول مرة ولاقيا ما لاقياه من تعذيب سانشو باللحاف تدلان على ان هذا القصر مسحور ، وان كل ما يجري فيه ليس له صبغة حقيقية ، بل كل ذلك ظواهر كاذبة . فلم يقنع سانشو بهذا الكلام ، وأصر على أن الكارثة التي انتابته في هذا القصر عند مجيئهم اليه في المرة الأولى لم تكن سحراً مطلقاً ، لأنه لا يزال يشعر بقشعريرة في جسده كلما تذكرها . ولكن كل ما قاله في هذا الصدد لم يكن ليبدل رأي دون كيخوتي بأن القصر مسحور

مكث الجميع في الفندق يوماً آخر ، وفي اليوم التالي عزم كل من دوروته وكاردينو ورفقائهما على السفر الى مكانهم ، ومن ثم فشلت حيلة القس والمزين في ارجاع دون كيخوتي الى بيته . حيث ان هذا الاخير ما زال عازماً على السفر لأجل اعادة الأميرة المزعومة الى مملكتها . وأخيراً وفق القس الى ايجاد طريقة حسنة للحصول على ما جاء من أجله ، وذلك بان يحمل دون كيخوتي على الاعتقاد بأنه تحت تأثير السحر .

وفي ذلك الحين دخل الفندق حوذي يسوق مركبة يجرها

ثوران ، وكانت نيته السفر الى احدى البلاد الجنوبية التي يمر طريقها من قرية دون كيخوتي ، فطلب اليه القس ان ينقل دون كيخوتي على عجلته مقابل أجرة يدفعها له ، فرضي بذلك



مركبة الثيران

الا ان الصعوبة هي في وضع دون كيخوتي على العجلة وبقائه عليها طول مدة السفر، ومن البديهي أنه لن يوافق بطيبة خاطر على هذه الطريقة المخلة بشرف شفاليه مثله

وبعد ان تناقشوا في الامر جمعوا كمية كبيرة من الحطب ، وصنعوا منها قفصاً كبيراً قوياً ، لكي ينام فيه مرتاحاً ولا يستطيع الفرار منه اذا شاء

وفي صباح اليوم التالي تجمهر كل من كان في الفندق ، لأن القس كان قد أطلعهم على عزمه ، فتزيوا بازياء غريبة ، وقنعوا وجوههم كي يخفى عليه أمرهم . فدخلوا جميعاً بقيادة القس الى غرفة دون كيخوتي حيث كان مستغرقاً في نومه : ولما أفاق وجد نفسه مربوطاً بالحبال وأمامه جماعة مبرقعون ظنهم عفاريت ، ثم أيقن أن هذه اللعبة هي من أعمال الجان الأشرار ولم يتمكن من تحريك يديه أو رجليه للدفاع عن نفسه



دون كيخوتي بين ايدي العفاريت

وفي أثناء ذلك صاح المزين الذي كان مختبئاً خلف باب الغرفة بصوت حزين ضئيل كأنه خارج من اعماق الكهوف قائلاً :

« ايه أيها الشڤاليه ذو الوجه الحزين : أرجو أن لا يحزنك هذا الأمر والاعتقال . انهما ضروريان لانجاز الاعمال العظيمة التي تستحقها نفسك الباسلة الشريفة . وأنت يا أشرف المرافقين وأطوعهم : لا تتأثر من رؤية زهرة الشڤاليه الرحالة تحمل أمامك خير لكما ان تذهبا الى حيث تستريحان . لم يسمح لي بأن أقول أكثر من هذا . . . فلتحفظكما السماء . أما أنا – فاني ذاهب ... وأنا أعلم الى أين . »

قال المزين ذلك بصوت جهوري في باديء الأمر ، ثم خفض صوته تدريجياً ؛ فأثر على النفوس تأثيراً شديداً ؛ حتى ان الذين كانوا مطلعين على تفاصيل القضية كادوا ينسون ان هذه رواية هزلية مضحكة

فارتاح دون كيخوتي الى هـذا الخطاب الذي قاله المزين ، وتخدرت أعصابه ، واستسلم للقدر فتمكنوا من حمله بدون أدنى معارضة ووضعوه في القفص وأناموه ممدداً على طوله . ثم رفع العفاريت القفص على اكتافهم ووضعوه على العجلة وبعد ذلك سارت القافلة على الترتيب الآتي : —

سارت المركبة امام الكل ، ومشى السائق بجانب ثيرانه ، وعلى كل من جانبي المركبة نفر من الشرطة المعروفين بشرطة (القديس هرمانداد) – وكان قد بات هؤلاء تلك الليلة في الفندق ،

فاستخدمهم القس لبلوغ أربه مقابل دريهمات دفعها لهم مقدماً — ويتلو ذلك سانشو راكباً حماره بومله وقائداً عنبراً بالمقود ، وفي آخر الجميع يأتي القس والمزين راكبين بغليهما يتحادثان مع كاهن



دون كيخوت في طريقه الى بيته

من بلدة (طليطلة) يصحبه خدمه وقد التحق بالقافلة في الطريق. فمشوا على هـذه الصورة طول مدة السفر مقتفين أثر خطوات الثيران البطيئة

لم يحدث حادث أثناء هـذه السفرة سوى شجار حصل بين دون كيخوتي وأحد رعاة المعز: وذلك انه عند ما قاربت الشمس الزوال توقف الجمع عن السير ليستريحوا ويتغدوا في واد أخضر جميل . وبينما كانوا يأكلون جاء أحد رعاة المعز وأخذ يتحادث معهم ببساطة قلب ورقة شعور . فلما أنزل دون كيخوتي من القفص ليتغدى تفوه بكلمات غريبة عجيبة ، فقهقه الراعي من ذلك وقال :

«يظهر لي ان الغرف التي في دماغ هذا الرجل ليست مفروشة بالاثاث الكامل»

فغضب دون كيخوتي وقبض على قطعة من الخبز ورمى بها وجه الراعي فأصابت أنفه ، فنشبت هنالك معركة بينهما اشترك فيها سانشو المسكين ـ كما هي العادة ـ وأصابت معظم الضربات جسمه الضخم ، بينما شرطة القديس هرمانداد الخبثاء التفوا حول المعركة ليتسلوا بتهييج المتشاجرين وتشجيعهما على الفوز في الضرب واللكم . فخاف القس والكاهن والمزين شر العاقبة وفصلوا كلاً منهم عن الآخر لئلا يقع مالا تحمد عقباه

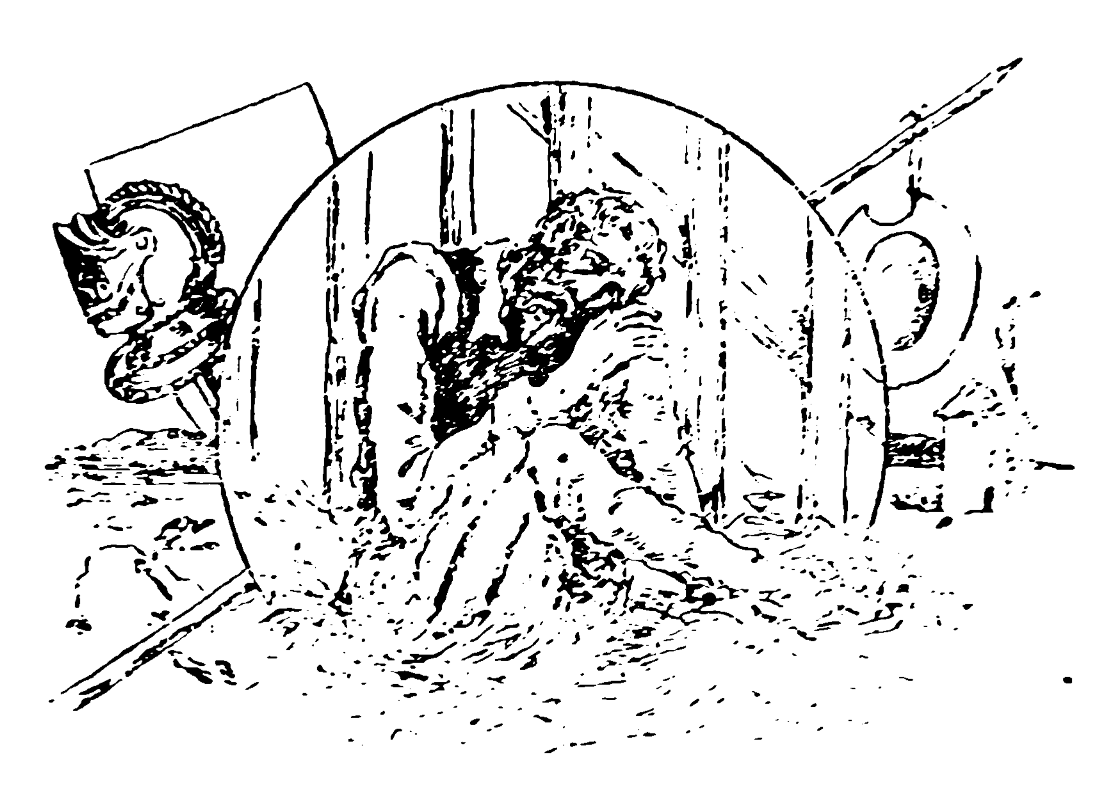


شجار دون كيخوتي مع راعي المعز

ثم وضعوا دون كيخوتى في القفص ، وواصلت القافلة السير مرة أخرى ولم يمض على ذلك مدة طويلة حتى نقص عددها نقصاً كبيراً لأن الشرطة ذهبوا الى الوجهة التي يقصدونها ، وكذلك ذهب الكاهن وخدمه في الطريق المؤدية الى بلده بعد أن أخذ على القس العهود والمواثيق بان يكتب له عن كل ما يتعلق بأحوال دون كيخوتى وأطواره

وقد صادف دخول القافلة قرية دون كيخوتى في يوم عيد اجتمع فيه سكان القرية بأسرهم في الشارع الذي ستمر منه عجلة الثيران ، فركض الجمع ليرى ما هي حقيقة هذا القفص الغريب المحمول على المركبة . وكم كان اندهاشهم عظيماً عند ماراًوا

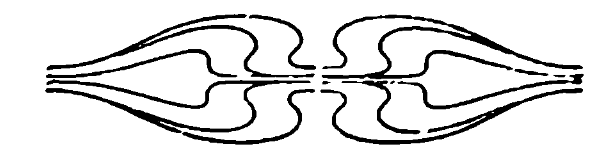
انها تحمل وطنيهم الشهير . فركض أحد الصبية ليبشر بيت دون كيخوتي ، فقال للمربيـة وابنة الأخت ان سيدهما قد رجع هزيلاً نحيلاً وهو مضطجع على عجلة ثيران . فأخذت المرأتان الصالحتان تنـدبان حظهما ، وتلعنان كتب الشڤاليه التي وصلت بحياة رجل شريف صالح الى مثل هذه النتائج المرة



دون كيخوتي في القفص

وبينما كانتا تندبان وتنتحبان رأتا الشڤاليه المسكين جالساً في قفصه امام الباب . فوضعتاه على الفراش في غرفته القديمة . أما هو فقد جعل ينظر اليهما مستفهماً دون أن يعرفهما . ونصح

القس لابنة الأخت أن تعتني به اعتناء شديداً وان تراقب حركاته لئلا يفر مرة أخرى . فأذعنت البنت لما قاله القس ووعدت بعمل ذلك ، لأنها كانت تخاف هي أيضاً من فراره من البيت مرة أخرى ، لان الحوادث السابقة لم تدع مجالاً للريب بأن دون كيخوتي مختل الشعور



الفصل الثامن

كان القس والمزين يأتيان كل يوم الى بيت دون كيخوتي ليستعلما عن أحواله ، ولكنهما لم يطلبا مواجهته قبل مرور شهر على مجيئه ، لئلا يتذكر الوقائع الماضية التي يفضلان ان ينساها. وبعد مرور شهر كامل جعلا يزورانه ويتحادثان معه بهدوء وسكينة كسابق عادتهما في محادثته في الايام الماضية . وفي ذات يوم بينما كانا عنده شهدا حادثة جديدة جعلتهما يتأكدان من أن دون كيخوتي لايزال مجنوناً

وتفصيل الخبر هو أنهما بينما كانا يتكلمان معه في أحاديث لذيذة سارة سمعا ضجة في فناء الدار فركضا ليريا ما حدث وهناك وجدا المربية وابنة الاخت تبذلان جهدهما لتقفلا الباب في وجه سانشو بانزا ولتمنعناه من الدخول . ولكن هذا كان يتشبث في الدخول الى البيت بالقوة

فقالت له المربية وهي متهيجة من شدة الغضب :

« ما شغلك هنا ؟ اذهب ! اذهب الى بيتك واسترح فيه . أنت وأمثالك جعلتم سيدي يفقد رشده بتجواله شريداً طريداً في الفيافي والاقطار »

فأجاب سانشو بشدة :

« فقد رشده؟ انا الذي أفقدوا رشدي وشعوري وجعلوني



سانشو بانزا يريد الدخول الى البيت بالقوة

متشرداً تائهاً ، ومع كل ذلك بدون أدنى فائدة . هــذا يدل على جهلك الحقائق : انه هو الذي أخرجني من بيتي ، وأبعدني عن

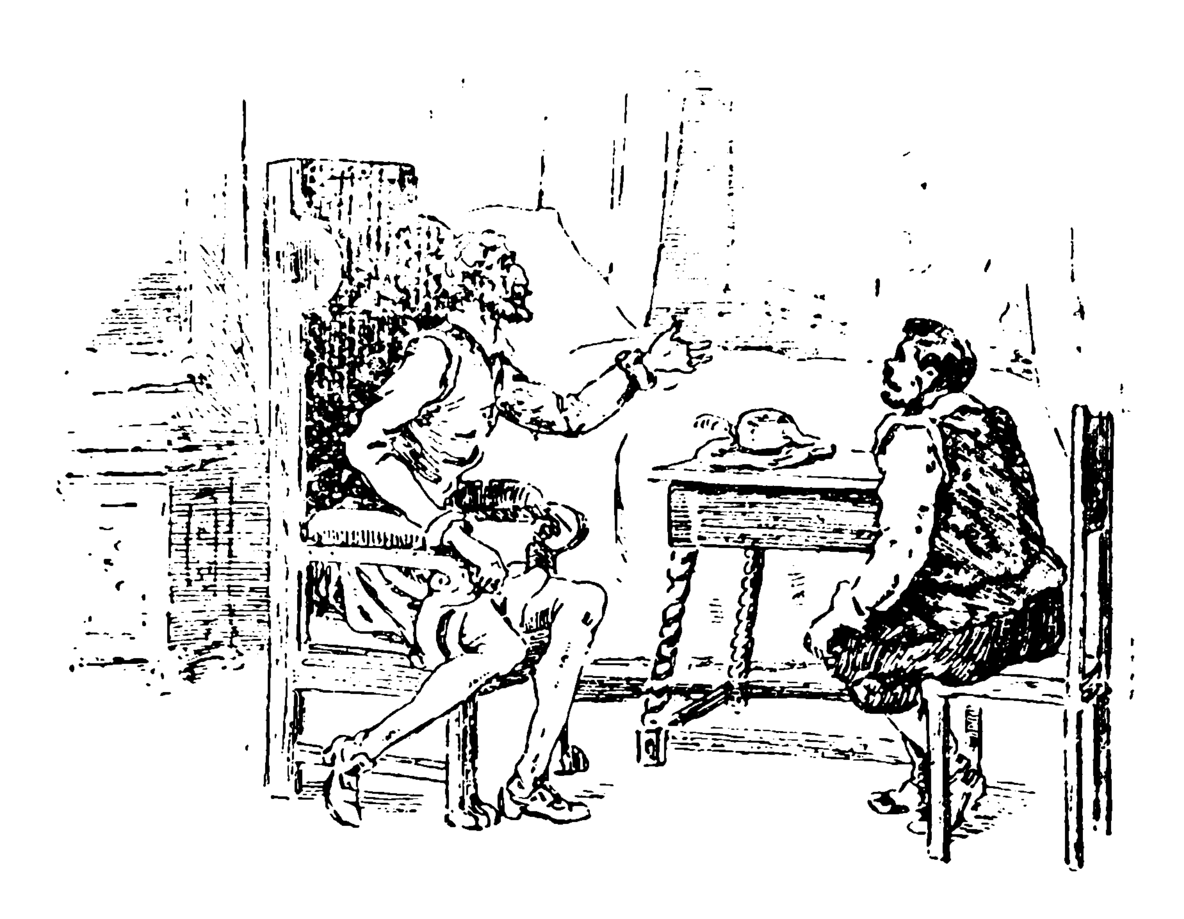
مزبلتي ، واعداً اياي بأنه سيعطيني جزيرة ، تلك الجزيرة التي لم تأت بعد والتي ما زلت انتظر قدومها

فقالت ابنة الاخت « جزيرة ؟ أحقاً ما تقول : كيف تكون الجزيرة وما هي ؟ هل هي شيء يؤكل ؟ اذن أتمنى ان تقف في بلعومك وتخنقك ياشره ! »

فاجاب سانشو معارضاً : « لا . ليست هذه بشيء يؤكل . انما الجزائر من الأشياء التي تفتح وتحكم . نعم ، هي امارات لطيفة المنظر وأجمل من الحكومات المؤلفة من أربع مدن مجتمعة مهما كانت أهميتها . »

فقالت المربية : « هذا حسن جداً . ولكن لن تدخل البيت قط . اذهب يامفسد ياشر الأشرار . اذهب واحكم بيتك . اذهب واشتغل يا كسول . احرث بحراثك ولا تزعج دماغك الابله بجزائر أو بسفاسف كهذه »

أما القس والمزين فقد كانا مصغيين الى هذه المحادثة الطويلة بطيبة خاطر ، لما رأيا من تحذر المربية وابنة الاخت من قدوم سانشو الى البيت . غير ان دون كيخوتي الذي تجددت رغبته في طلب الوقائع بعد شفائه من المرض خشي ان يبوح سانشو بالسر ويفلت فلتات تخل بسمعة سيده فأمر المرأتين بالسكوت وادخل



خلوة دون كيخوتي بمرافقه سانشو بانزا

مرافقه الى غرفته واختلى به . فلما رأى ذلك القس والمزين ذهبا ادراجهما يائسين من شفاء صديقهما

فقال الاول « سأتوقع في كل لحظة من الآن فصاعداً ان اسمع خبر سفره مرة أخرى . »

فاجاب المزين « وأنا أيضاً كذلك . ولكن حماقة مرافقه المزعوم تفوق كل حد . وهذه الجزيرة المتمركزه في دماغه المقفل لا تزعزعها من مكانها عقول البشر كلهم . ومع هذا فاني أود أن أسمع ما يقولان . »

وكان سبب مجيء سانشو الى بيت سيده هو انه بعد رجوعه من سفرته الطويلة تلقته زوجتـه ماريا بازا بالترحاب والاكرام ولما علمت انه جاءها صفر اليـدين لا دراهم ولا قفطان حتى ولا أحذية للاولاد تكدرت كدراً عظيماً وجعلت ترمقـه بعين الاشمئزاز والتضجر ، فأكد لها سانشو بأنه سيحصل قريباً على جزيرة جميلة وهي أحسن من القفاطين والاحذية بكثير،فلم تقتنع وسألته عن فائدة هذه الجزيرة المزعومة . فهـذا السؤال حرك شجون سانشو وأزعجه وشعر بألم في ظهره لأنه ذكره بمسألة اللحاف . وعليه قرر ان يذهب الى دون كيخوتي ليفضي بحزنه وكدره اليه

فقال سانشو لسيده « أنا لا أستطيع في عمري هذا أن أحكم جزيرة ، ولن أستطيع ذلك قط في المستقبل حينما أصبح أكبر سـناً من متوشالح . والبلية العظمى هي أننا حصلنا على كل ما نحتاجه لحكم الجزيرة ، الا أن الجزيرة نفسها لم نحصل عليها ويالللأسف . »

وفي أثناء ذلك سمعا عنبراً يصهل في الاصطبل فتفاءل دون كيخوتي بذلك خيراً ، وشرع هو وسانشو يستعدان سراً لسفرة أخرى . ولسوء الحظ وجد دون كيخوتي مشجعاً له من رجل شاب ابن أحد جيرانه. وكان هذا الشاب في الرابعة والعشرين من

عمره ، قصير القامة ، أصفر الوجه ، ولكن البشاشة بادية على محياه . ولم يكن محروماً من العقل والرزانة . وكان يحب ممازحة جاره ومداعبته كثيراً . وهو معروف بين الناس بالمتخرج (سامسون كاراسكو) لأنه تخرج من جامعة (سالامنده) المشهورة ونال درجة أستاذ في العلوم

وفي هذه المرة واظبت كل من المربية وابنة الاخت على التحفظ والاحتراس ، ولكنهما بدا لهما الشك في أطوار دون كيخوتي وظنتا أنه مزمع على متابعة سفراته . وتحول هذا الشك يقيناً لما رأتا كاراسكو يجلب الى دون كيخوتى خوذة قديمة كان قد ابتاعها من أحد الحوانيت التي تبيع بضائع عتيقة . وكان دون كيخوتى قد التمس منه ان يشتري له واحدة كاملة الأجزاء بقدر الامكان ، فكانت هذه نتيجة ما قام به من البحث . وعند ذلك نتفت المربية وابنة الاخت شعورهما وصاحتا بأعلى صوتيهما مستغيثتين ولاعنتين (كاراسكو) على حماقته وغدره . غير أن هذا العمل لم يجدهما نفعاً لأن دون كيخوتي ترك البيت في الليلة نفسها وسافر مع أصحابه المملومين : سانشو وعنبر وبومله

الفصل التاسع

أراد دون كيخوتي في هذه السفرة الجديدة ان يتبرك أولا بزيارة (دلسينيا دوتوبوسو) سيدة افكاره ؛ فتوجه هو ومرافقه نحو قرية توبوسو

وبعد ان قطعا مسافة طويلة في خلال أربع وعشرين ساعة وصلا الى القرية حيث تقطن دلسينيا الحسناء . فلم يشأ دون كيخوتي ان يدخل القرية في النهار فقضيا مساء ذلك اليوم في غابة صغيرة من شجر السنديان واقعة في ذلك الجوار

مضى هزيع من الليل فنهض الشفاليه ومرافقه ودخلا راكبين خيلهما في شوارع توبوسو . وفي تلك الساعة كان جميع السكان نائمين لم يستيقظ منهم أحد بعد ، وكان السكون سائداً في جميع الاطراف ؛ لو لم يزعجه احياناً عواء الكلاب ؛ وبقاع الخنازير ، ومواء السنانير ؛ ونهيق الحمير

فقال دون كيخوتي « اذهب بنا ياسانشو الى قصر دلسينيا وأظن أننا سنراها مستيقظة من نومها »

فقال سانشو « أي قصر تعني ؟ ان الدونا دلسينا تقيم – على ما أعلم – في بيت حقير باسفل زقاق ضيق لا مخرج له . واذا أردتم سيادتكم ان تكون دارها قصراً بالقوة والعناد فهل تظن ان شبابيك القصور مفتوحة في هذه الساعة ؟ »

فصاح دون كيخوتي « يالك من عنود : وهـل رأيت في عمرك ان قصور الملوك واقعة في أسفل أزقة ضـيقة لا مخرج لهـا ؟ »

فاجاب سانشو « ياسيدي ! لكل بلاد عادات خاصة بها ،ولا أقدر ان أجزم فيما اذا كانت عادة أهل هذه البـلاد ان يبنوا قصورهم في ازقة لا منفذ لها . وعلى كل حال يقتضى ان تكون سـيادتكم قد رأيت قصر السيدة أكثر من ألف مرة ، فلماذا اذن تكلفني بأن أبحث عنه في هذا الليل الدامس ، مع اني لم أره أكثر من مرة واحدة في حياتي ؟ »

فقال دون كيخوتي « ستقتلني يأساً وكدراً ياسانشو ! ألم أقل لك مراراً انني لم أر في حياتى دلسينا الحسناء، وانى لم أجتز عتبة قصرها أبداً ، وأني لم أعلن عبوديتي لها الا بعـد أن استقصيت الأخبار عن شهرتها الذائعة الصيت، ومزاياها السامية، وحسنها الفتان ؟ »

وفي تلك الاثناء سمما ضجة قطعت حديثهما . وكان الليل قد أوشك أن يذهب ، وبدأ الفجر يظهر طارداً جيوش الظلام أمامه . فظهر في الشارع عامل كان ذاهبا الى الحقل ليشتغل باكراً ومعه بغلان يسوقهما امامه . فناداه دون كيخوتى وقال له : « صباح الخير ياصاحبي ! هل لك أن تدلنا على طريق قصر الاميرة دلسينا دوتوبوسو الحسناء ؟ »



دون كيخوتي يسأل عامل الحقل عن قصر الاميرة دولسينا

فاجاب الرجل بتأدب « انى غريب عن هـذه المدينة ، ولم أدخل في خدمة أحد الزراع هنا الا منذ بضعة أيام فقط . ولكن القس والشماس اللذين يقيمان على الجانب الآخر من هذه الطريق يدلانكما على المكان الذي تريدانه ، لأن عندهما سجلاً بأسماء جميع سكان هذه القرية . ولا توجد هنا أميرة قط على ما أعلم ، بل يوجد كثير من السيدات اللواتي هن أميرات في بيوتهن . »
ولما أتم الرجل حديثه ودعهما وساق بغليه ومضى في سبيله

فلما رأى سانشو سيده حائراً مرتبكا في أمره ، وكان يريد أن يبعده من هذا المكان ، أشار عليه بالرجوع الى خارج القرية ليستريح في الغابة . ريثما تشرق الشمس وعندئذ يعود هو ويبحث في كل زوايا القرية ، الى أن يجد القصر ويتشرف بالمثول بين يدي السيدة النبيلة

فاستحسن دون كيخوتي هذا الرأي وشرع يفكر كلاهما بوضعه موضع العمل حالاً فأقعد سانشو سيده في ظل غابة تبعد نحو ميلين من القرية ، ثم استأذنه في الذهاب قائلاً :

« أنا ذاهب الآن وسأعود اليك ياسيدي على عجل ، فارجو أن لا تغرق في التخيلات والوساوس المريبة ؛ بل تذكر دائماً المثل القائل « القلب السليم يقتحم الطالع النحس » وكذلك المثل الآخر « ينتظر الصياد العصفور فيظهر امامه ارنب » وان كنا



استراحة دون كيخوتي ومرافقه في غابة قريبة من قرية دوتوبوسو

لم نقدر ان نجد القصر في الظلام فانا واثق بأني سأجده سريعاً على ضوء النهار . ولقد احسنت صنعاً الآن ياسيدي اذ وافقت على انتدابي لمواجهة السيدة . »

ورغماً عن هذا الخطاب المفعم بالتأكيدات كان سانشو مرتبكا في أمره حقيقة ، فانه بعد أن فارق الغابة ـ حيث ترك سيده ـ وتأكد من أن هـذا لا يراه جنح عن الطريق ونزل عن حماره وجلس تحت شجرة قريبـة ليفتكر في الامر الذى هو ذاهب من أجله

وفي الحقيقة لم يعرف سانشو كيف توصل سيده الى معرفة

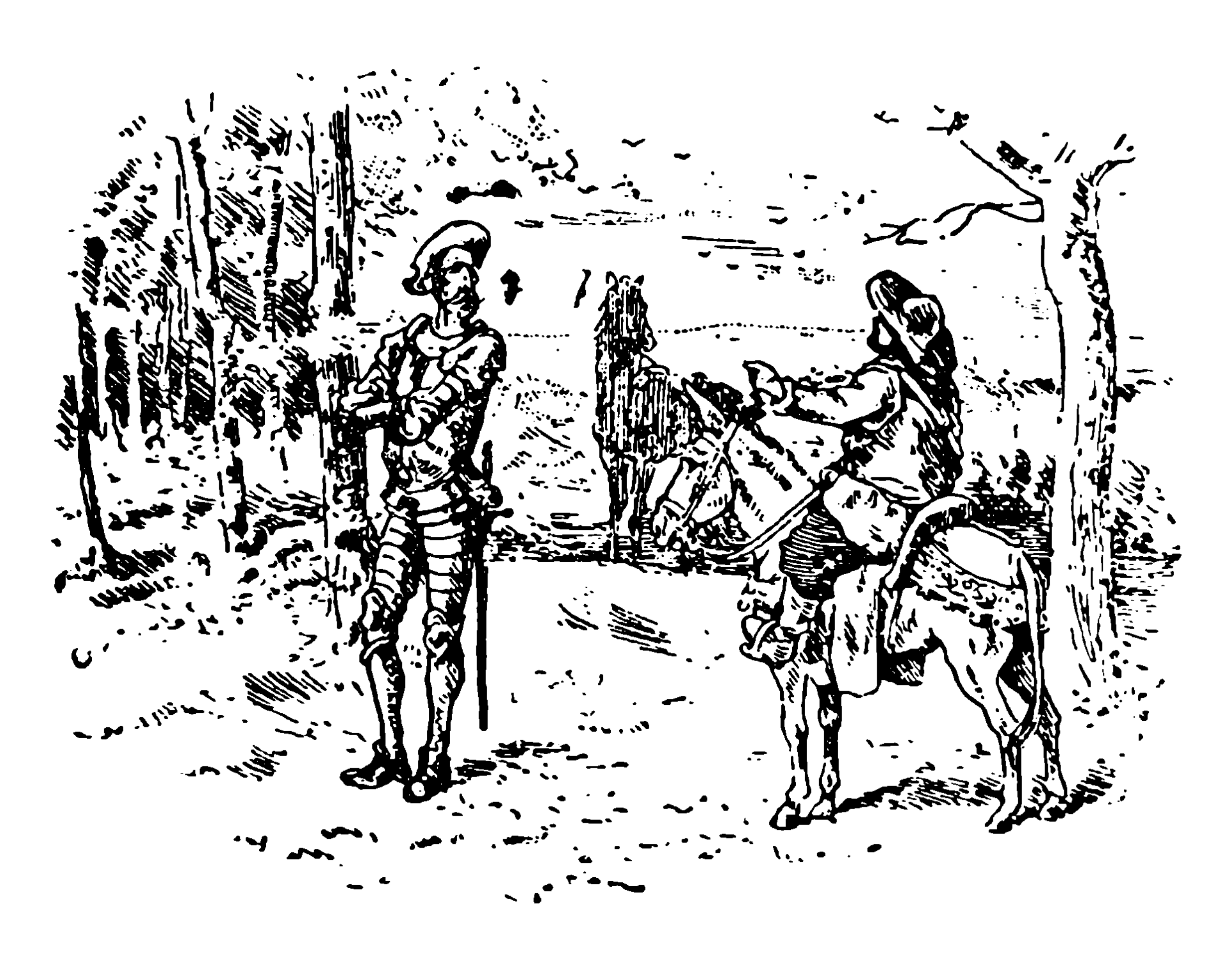
الاميرة دولسينا دون أن تعرّفه هي ـ أو أن يعرف هو ـ المكان الذي تسكن فيه . وبعد أن افتكر عميقاً وقدح زناد قريحته للخروج من هذا المأزق الحرج استطاع ان يستنتج ما يأتي : ـ

لا ريب في ان سيدي مجنون ، وفي الحقيقة لست أنا بأعقل منه ان لم اكن أكثر جنوناً . وعلى كل حال فما دام مجنوناً الى درجة انه لم يفرق بين الطواحين الهوائيه والجبابرة ، ولا بين قطعان الغنم والجيوش ؛ فلا أظنه يستطيع ان يفرّق الجمل من البرغوث في المستقبل . وليس من الصعب أن أقول له ان أول فتاة قروية تظهر أمامنا هي سيدته دولسينا . فاذا لم يصدق اصررت على قولي حتى أقنعه . وان تمادى في اصراره ازددت تعنتاً وشدة ، الى ان يلين وأفوز عليه . وهذا العمل سيمنعه من الآن فصاعداً من ان يكلفني بالقيام بوظائف متعبة كهذه ان لم يتصوَّر في مخيلته أن بعض السحارين قد بدلوا شكل سيدته ، اما كرهاً له أو حسداً . »

فارتاح سانشو لهذا الرأي وشعر باستراحة لذيذة تحت تلك الشجرة ، فظل هناك دون ان يأتي بحركة ، الى ان مالت الشمس عن الزوال فاستمدّ حينئذٍ وأعدّ بومله للركوب والعودة الى سيده . وبينما هو كذلك لاحظ عن بعد ثلاث قرويات راكبات حميراً وخارجات من توبوسو

فلما رآهن سانشو طار قلبه من الفرح وأسرع على حماره مغيراً نحو الغابة الصغيرة حيث كان دون كيخوتي ينتظره

فلما وصل قال له : « البشارة ! البشارة ... ليس على سماحتكم الا أن تركب وتهمز جوادك . لقد جاءت الدونة دولسينا بنفسها ،



سانشو يبشر سيده بقدوم دولسينا دو توبوسو

وهي آتية من توبوسو بين اثنتين من الاوانس الشريفات . فأسرع الى مواجهتها . وسترى الثلاثة كأنهن قطعة من الذهب الوهاج ، أو من اللؤلؤ والالماس والياقوت ، وثيابهن فاخرة مطرزة ، وشعورهن تتموج في الهواء كشعاع الشمس ، وهن

راكبات ثلاثة حمير من جياد الخيل لم تر عينك مثلها في الرشاقة واللطافة . »

فقاطعه دون كيخوتي قائلاً « لا شك في انك تريد ان تقول ثلاثة من الخيل اليس كذلك ؟ »

فأجاب سانشو « هـذا حسن جداً ، حمير أو خيل ، الفرق ليس بكبير • ولـكني متأكد بأنه لا يوجد مثل هذه الخيل في الدنيا كلها . »

نخرجا من الغابة وهما يتحادثان على هـذه الصورة • وكان دون كيخوتي ينظر الى طريق توبوسو بشوق وتلهف . وما كان يوجد في تلك البقعة من الأرض أحد سوى البنات الثلاث اللواتي صرن قريبات منهما . فسأل مرافقه بتأثر شديد عما اذا كانت السيدات قد خرجن من القرية عند ما رآهن

فصاح المرافق « خرجن من القرية ؟ هل عينا سيادتكم مشغولتان برؤية الأشياء من خلف بحيث لا ترى ما أمامك من السيدات اللواتي يلمعن كالشمس نفسها ؟ »

فصرخ دون كيخوتي « اني لا أرى شيئاً سوى ثلاث بنات قرويات راكبات حميراً . »

فصاح سانشو « الله يحفظني ! هل من الممكن أن تظهر أمام

سيادتكم هذه الخيول الثلاثة البيضاء كالثلج — مهما أردت أن تدعوها — بصورة حمير ؟ »

فقال سيده بدهشة « اني متأكد من أنها حمير ، كما أني متأكد من أني دون كيخوتي وانك سانشو بانزا . »

قال سانشو « أتوسل اليك يا سيدي ان لا تتفوه بمثل هذه الأمور الغريبة ، وتعال اعرض احتراماتك على سيدة افكارك . »

ولم يتم سانشو كلامه هذا حتى نزل عن حماره وتقدم نحو احدى القرويات فقبض على مقود حمارها فأوقفه ثم ركع على ركبتيه وخاطب البنت بما يأتي : —



سانشو يحيي القروية الضخمة



دون كيخوتي يركع أمام القروية

« يا ملكة ، يا أميرة ،
ويا سيدة الجمال التي ليس لك
مثيل ! هل لك ان تتفضلي
بتوجيه عنايتك وألطافك الى
سيدي الشفاليه ذي الوجه
الحزين ذلك المسافر التعب
الذي بقي هناك صامتاً كالحجارة
امام بهاء منظرك وجمال
طلعتك ؟ »

وفي اثناء ذلك كان دون
كيخوتي قد ركع أيضاً بقرب
سانشو ونظر بعينين محدقتين
الى وجه القروية الضخمة الجثة ،
وكان متشوش البال وحائراً في
أمره ، فلم يستطع ان يحرك
شفتيه . أما البنات فقد بهتن
من هذه الوقاحة التي لاقينها
من هذين الرجلين الغريبين دون
أن يعلمن السبب . ولما زال
هذا الدهش قليلاً قالت لهما
الدونة ديلسينا المزعومة : —

« اتركا حماقتكما ، وابعدا عن الطريق ، فاننا مسرعات في سفرنا . »

وقالت الاخرى : « نعم ، اذهبا وابحثا عن اناس تتكلمان معهم . اشتغلا بأشغالكما ودعانا نذهب الى عملنا . »

فلما سمع دون كيخوتي هذا الكلام قال « انهض يا سانشو ! يظهر لي ان ساحراً خبيثاً قد بدل حقيقة هذه السيدة التي لا مثيل لها ، والحائزة على أفضل المزايا البشرية ، فلم تظهر أمامي الا بهيأة قروية فقيرة . واأسفاه ، هذا الساحر الملعون قد بدل هيأتي امام عينها ايضاً ، وجعلني بصورة شقي مكروه ، وذلك مما جعلها تمقتني لأول نظرة وقعت منها عليّ . ومع هذا كله فياسيدة افكاري وآمالي لا أطلب منك سوى أن ترمقي بنظر العطف هذا الذي يركع أمامك مؤكداً لك اخلاصه وعبوديته الدائمين . »

قالت الفتاة « لنذهب ، لنذهب ! كفّ عن هذيانك ياسيدي ودعنا نذهب في سبيلنا فقد قبلنا منك هذه المداعبة بدون اعتراض »

فنهض حينئذ سانشو وترك مقود الحمار فوخزته الفتاة برجلها فرفس ونفر فوقعت السيدة دیلسينا عن ظهره الى الارض . فأسرع دون كيخوتي الى معاونتها غير أن السيدة تحملت هذا الأذى ولم تبد تأثراً لأنها قبضت على حمارها حالاً ووضعت يديها على ظهره ثم قفزت قفزة وصعدت عليه بدون معاونة أحد . وبعد ذلك فرت القرويات كالريح ولم يلتفتن الى ما خلفهن الا بعد ان قطعن مسافة طويلة

الفصل العاشر

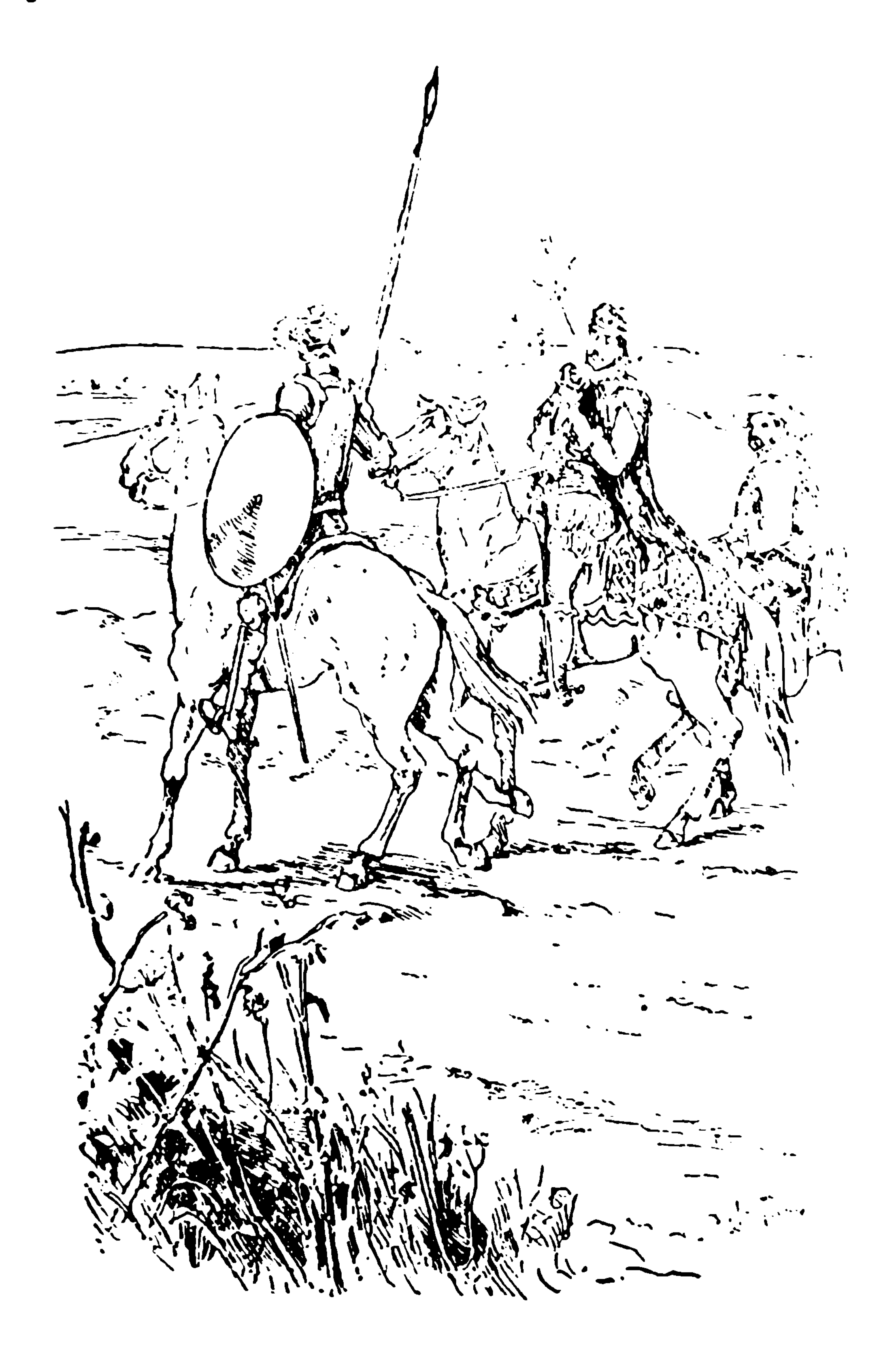
لم يمر زمن قصير على تلك الحادثة التي تركت في دماغ الشقاليه تأثيراً سيئاً حتى التقيا على الطريق برجل شريف راكباً حصانه مرتدياً كسوة خضراء . فنظر اليهما قليلاً ثم حياهما بلطف ؛ ووكز جواده فاجتازهما . فناداه دون كيخوتي ورجاه ان يسير بصحبتهما بضعة أميال اذا كان لا يوجد مانع لديه يمنعه من ذلك

فأجاب الرجل ذو الحلة الخضراء « بكل سرور يا سيدي ٠ وما كنت افوتكما لو لم أخش ان يجمح جوادكم اذا مشى بقرب جوادي . »

فقال سا نشو : « كن مستريحاً من هـذه الجهة ياسيدى ، وأؤكد لك بأنه لا يوجد في العالم أهدأ وأحسن سلوكاً من عنبر جواد سيدى . »

فتقدم الرجل الشريف من دون كيخوتي ، ووازن سيره مع سير رفيقه الجديد الذي كان ينظر اليه باستغراب ، ولـكنه لم ير فرصة مناسبة للسؤال عن حاله . فسارا معاً يتحادثان بمودّة وصداقة عن أمور شتّى

وفيما هم كذلك لا حظوا بغتةً مركبة كبيرة آتية نحوهم رافعة



مرافقة دون كيخوتي للشريف ذى الحلة الخضراء

ثلاثة اعلام صغيرة ، مما يدل على ان ما فيها عائد للملك . ولم تكن المركبة مخفورة برجال من الجند سوى السائق الذي كان راكباً على أحد البغال التي تجر المركبة ورجل آخر جالس في مقدمتها

فوقف دون كيخوتي على قارعة الطريق معارضاً سير المركبة ، وسأل عما فيها ، والى أين تذهب

فأجاب السائق « هي لي ، وأنقل عليها أسدين وحشيين ، وهما هدية من الجنرال دوران الى الملك . . . انه لم يأت فيما مضى أُسود من أفريقية كهذين الاسدين في عظمتهما وجمالهما »

وقال الرجل الآخر وكان حارساً « لقد قلت الصحيح . وان هذا الذي في القفص الخلفي أسد والاخرى لبؤة ... أرجوك يا سيدى ان تبتعد عن الطريق لنواصل السير الى مكان قريب ؛ لأنه قد مضت على الاسدين مدة طويلة لم يذوقا فيها طعاماً ، وهما الآن يتضوران جوعاً بصورة مخيفة . »

فتبسم دون كيخوتي باحتقار وقال « ان هذين الاسدين جاءا لمنازلتي في هذه الساعة . ولست من الرجال الذين يخافون الأسود . انزل أيها الغلام الباسل ، وافتح الأقفاص ودع الأسدين يخرجان منها ، وستعلم هذه الوحوش الضارية في هذه الساعة من هو دون كيخوتي المنسوب الى مقاطعة المانش . »

فلما سمع سانشو هذا الكلام صرخ صراخاً عالياً من الخوف

والوجل ، أما السائق فتضرع الى دون كيخوتي بأن يعدل عن خطته المشئومة المفعمة بالمصائب والاخطار . ولما رأى أنه لا يزال مصراً على عزمه قال له « اذا أردت ان تقابل الموت الأحمر بنفسك فدعني اذاً أحل بغليّ وأهرب بهما الى مكان بعيد عن الخطر ، لأن هذين البغلين والمركبة هي سبب معيشتي في هذه الحياة ، وليس لي باب للرزق سواها »

فأجاب دون كيخوتي « يالك من مسكين قليل الايمان . حلّ بغليك واذهب من هنا . »

وقد حاول الرجل الشريف ذو الحلة الخضراء المسمى دياكو ان يرجعه عن قصده مبيناً أنه لا يجوز له ايقاف هدية مرسلة الى الملك ، فلم يفلح في مسعاه

وقال له الشفاليه الباسل « أرجو منك ياسيدي العزيز أن تذهب وتلعب بحجلاتك الاليفة ، وطيورك الداجنة ، ودع كل شخص يشتغل بحرفته. واذا كنت تخاف من الوقوف هنا للفرجة فابتعد انت وحصانك الى مكان أمين . »

وبالنتيجة فقد أسرع الدون دياكو والسائق بالابتعاد عن ذلك المكان ، ورافقهما سانشو الذي كان قد قطع الأمل من رؤية سيده حياً بعد هذه الساعة . فوخز بومله برجليه ، وضربه بيديه، لكي يبتعد عن مركبة الاسدين بقدر ما يستطيع

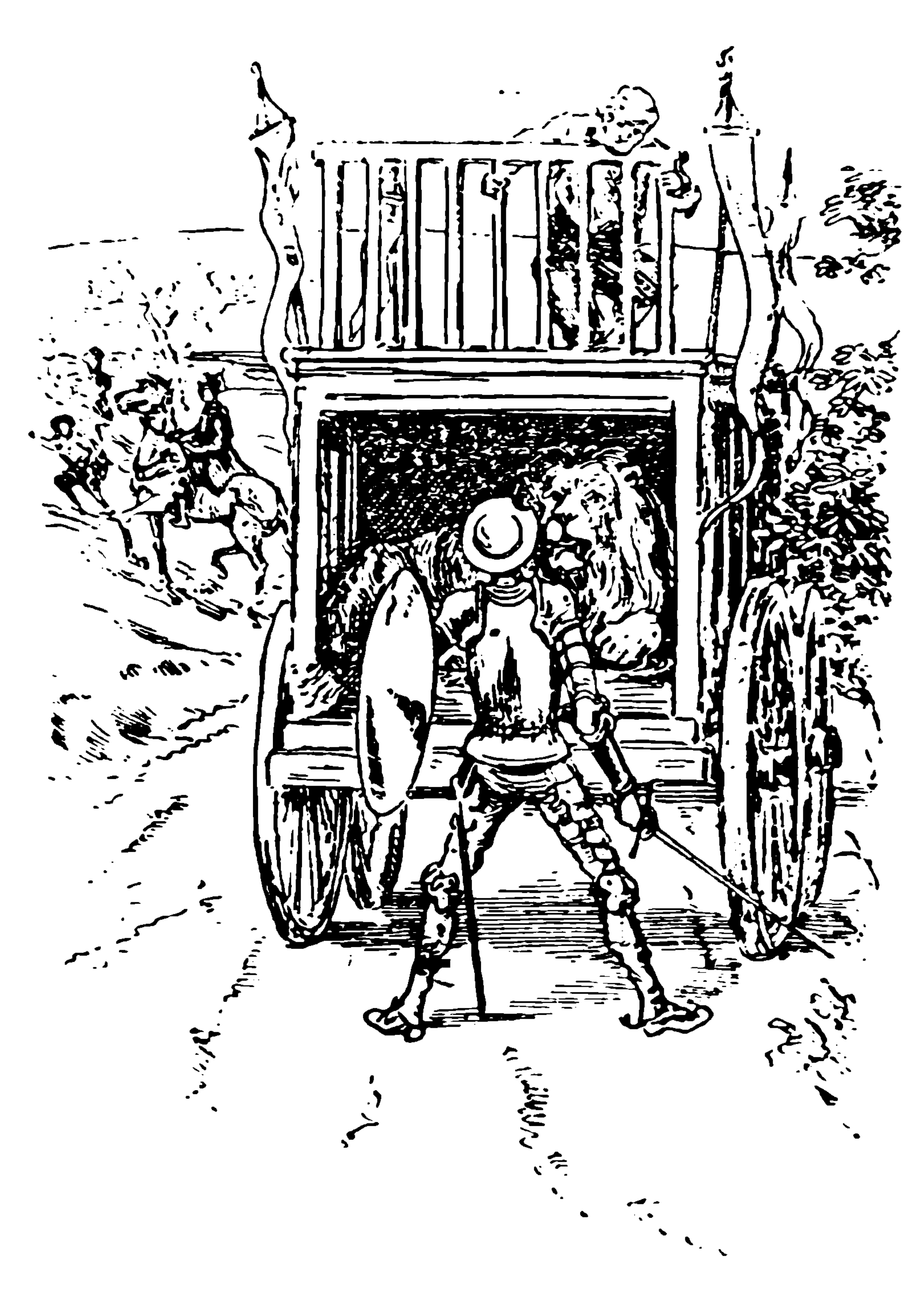
فلما ذهب هؤلاء نزل دون كيخوتي عن حصانه وقاده الى مكان أمين لاعتقاده بان عنبراً لم يكن معتاداً على مواجهة الأسود ، ومن ثم ارتأى ان يدخل في المعمعة مع الاسدين مترجلاً .

وفي اثناء ذلك كان الحارس الذي بقي هناك يعارض خطة دون كيخوتي بكل ما لديه من قوة الآن مساعيه ذهبت سدى. ثم ترك دون كيخوتي حربته وقبض على ترسه باحدى يديه وعلى سيفه بالأخرى ، وبعد ان ناجى السماء واستنجد باسم سيدته دیلسینا جاء وانتصب امام باب القفص الخلفي

ولما عجز الحارس عن ردعه بالأدلة والكلام المعقول لم ير بداً من أن يفتح له باب القفص بتمامه ، فظهر أمام دون كيخوتي أسد عظيم الجثة !

اندهش الأسد من هذه الزيارة غير المتوقعة فدار وتمطى وأبرز كل قامته وفغر فاه المخيف فبانت أسنانه في فكيه الكبيرين ثم أخرج لسانه الطويل وشرع ينظف جسده به كما تفعل الهرة عند التزين . ثم لفت نظره الى زائره ، فأخرج رأسه من القفص وأخذ ينظر اليه بعينين بارقتين كالجمر لو رأتهما الجسارة نفسها لارتعدت منهما . أما دون كيخوتي فلم يتقهقر خطوة واحدة بل كان مثبتاً عينيه في عيني الأسد بغاية الحذر والاشتباه وما كان

يريد شيئاً سوى أن يثب الأسد عليه ويشتبك معه في معركة عنيفة



دون كيخوتي يواجه الاسد

غير أن أبا خميس أجال نظره فيما حوله بضع ثوان ، ثم ادار ظهره بهدوء الى دون كيخوتي وعاد فاضطجع في مكانه بدون اكتراث ولم يخطر على باله الاستفادة من لحم زائره الغريب

فخاب أمل دون كيخوتي من لقياه ومن ثم أمر الحارس بأن يثير هـذا الجبان بقضيب من حديد ليحمله على الخروج أراد أو لم يرد . فأجاب الحارس « لا يا سيدي لا تطلب ذلك لان هـذا يعني التذمر من الحياة والكراهية لها . واني أتوسل اليك بأن لا تلح كثيراً ؛ وأرى من الواجب أن تكون ممتناً ومسروراً من الفوز الذي أحرزته في يومك هذا . ألا ترى كيف انه لم يجسر على مقابلتك ؟ فله العار ، ولك الفخر والشرف . »

فاذعن دون كيخوتي وقال « حق ما تقول . اذن فأقفل الباب ياصديقي العزيز واكتب لي شهادة مبيناً فيها ماعملته اليوم من الاعمال العظيمة ، بينما أنا أذهب لأنادي الذين نجوا بحياتهم ليعودوا الينا . »

وافق الحارس على ذلك فربط دون كيخوتي منديله في رأس رمحه وجعل يموّجه في الهواء وصاح بالفارين ليرجعوا

فعاد الدون دياكو وسانشو والسائق مع بغليه ، الا أن عودتهم كانت أبطأ بكثير من ذهابهم ، وقد اندهشوا جميعاً عند سماع ماحدث ، فشرع الحارس يطنب في مدح بسالة دون كيخوتي

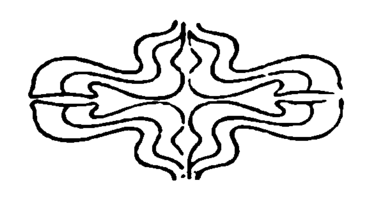


﴿ دون كيخوتي بعد انتصاره على الاسد ﴾

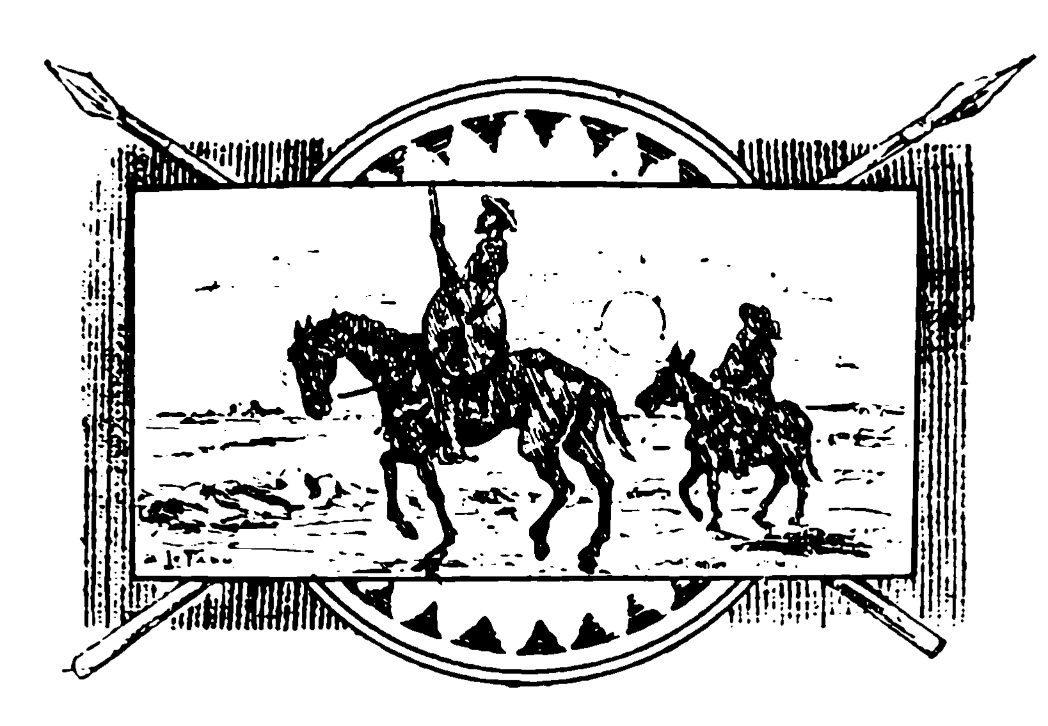
وبذم جبن الاسد، وقال لهم « لقد خاف الوحش المفترس عند ما رأى دون كيخوتى امامه ، فلم ير من سداد الرأى ان يترك الحصن الذي كان محتمياً فيه . »

ولما انتهى كل شيء أمر دون كيخوتى سانشو بان يدفع لكل من السائق والحارس بعض دريهمات عوضاً عما أصابهما من الخسارة لتعطيله إياهما عن السير . فشكره الرجلان على كرمه، وواصلا سيرهما بعد أن تمنيا له السلامة في حله وترحاله

قال الشفاليه لمرافقه « وما ذا تقول في هذه ياسانشو ؟ هل تظن أن السحر يستولى دائماً على الشجاعة الحقيقية ؟ لا . هؤلاء السحارون الخبثاء يستطيعون ان يحرموني ثمرة انتصاراتي ، ولكنهم لا يتمكنون من حرماني من عظمتي النفسية . »



الفصل الحادي عشر



في ذات مساء بينما كان دون كيخوتي وسانشو يسيران صادفا فتى في الثامنة عشرة من عمره ، وقد كان خادماً عند سنيور كبير فترك خدمته وذهب ليتجند . وكان هـذا الفتى بشوش الخلقة لطيفاً متعلماً متواضعاً . رأياه ماشياً على قدميه وثيابه رثة ، أما ثيابه الجديدة فقد احتفظ بها ووضعها في صرة يحملها على كتفه. وكان يغني في الطريق وقلبه خال من الهموم كما خلا جيبه من الدراهم

صحبهما فساروا معاً في الطريق العام حتى وصلوا الى فندق عزموا على المبيت فيه، وقد سرّ سانشو سروراً عظيما لأن دون كيخوتي لم يتخذ هذا الفندق قصراً كما كانت عادته في السفرات الماضية

وبينما كانوا جالسين في فناء الفندق يتسامرون ويقصون الحكايات دخل عليهم رجل غريب المنظر عليه كسوة من جلد ، فطلب من صاحب الفندق ان يبيت في فندقه

فقال صاحب الفندق « آه ، هذا هو الاستاذ بدرو . سنقضي معه ليلة من أحسن الليالي . أتريد أن تبيت هنا يا أستاذ بدرو ؟ نعم ، نعم ، عندي مكان كاف لك . أين القرد والتياترو ؟ »

فاجاب الرجل « سيحضران حالاً ، وقد جئت لأستعلم عما اذا كان عندك محل للبيتوتة . » ثم رجع من حيث أتى

فسأل دون كيخوتي : من يكون الأستاذ بدرو ، وما هو التياترو والقرد اللذان يبحث عنهما ؟

فقال صاحب الفندق « آه ياسيدي ! عنده تياترو من الصور المضحكة يدور به من بلدة الى أخرى . وهذا التياترو هو من أحسن ما اخترعه العقل البشري . ولكن الأغرب من ذلك القرد ، فانه يخبرك بكل الاخبار الحسنة السارة . فاذا ألقيت عليه سؤالاً أصغى اليك بكل انتباه ، ثم يقفز على كتف صاحبه ويهمس في أذنه ؛ فيخبرك حينئذ بدرو بالجواب . والعادة ان يدفع مبلغ صغير للقرد عن كل سؤال يسأل عنه . وأؤكد لك بأن ما يجمع من هذا المبلغ الصغير في نهاية كل سنة يكون ثروة لا يستهان بها . »

وفي أثناء ذلك عاد الأستاذ بدرو ومعه تياترو الصور المضحكة وقرده في عجلة صغيرة . فأخرج دون كيخوتي بضعة



دون كيخوتي يعطي بدرو نقودا ليتنبأ القرد بمستقبله

دراهم من جيبه حالاً وسأل عما اذا كان القرد يستطيع ان يخبره بالحوادث المقبلة التي ستقع له

فقال بدرو « لا ياسيدي . ان هذا الحيوان لا يخبر عن المستقبل ولكنه يستطيع أن يقول لك الماضي وقليلاً من الحال الحاضر . »

فصاح سانشو « لا أدفع فلساً لسماع الماضي ، لأني أعرف ماضيَّ أحسن من كل شخص آخر . ولكن قل لنا ماذا تعمل زوجتي ماريا في هذه الساعة . »

أشار الاستاذ بدرو بيده الى كتفه ، فصعد القرد عليه بوثبة واحدة ، وبعد ان كشر عن أنيابه وقلب سحنته امام أذن صاحبه عاد فنزل الى الارض

فعند ذلك اكب بدرو على قدمي دون كيخوتي مندهشاً ، ثم عانق رجليه وصاح قائلاً :

« آه ! يامعيد شرف الشفاليه الرحالة ، من يستطع ان يعطيك حقك من المدح والتعظيم ؟ وانت ياسانشو بانزا الامين وخير مرافق لأصلح شفاليه على وجه الارض ، ان زوجتك الدونا ماريا تشتغل الآن بفتل حبل من القنب غير مجدول ، وهي تشرب أحياناً جرعة ماء من جرة كبيرة بجانبها الايسر . والآن سأعرض على الحاضرين تمثيلاً مجانياً على شرف دون كيخوتي النبيل المشهور . »

فأسرع صاحب الفندق الذى سر بهذا التبرع لاعداد غرفة مناسبة للتياترو. أما دون كيخوتي وبقية الحاضرين فظلوا مبهوتين امام هـذا الخبر الذى تنبأ به القرد من عنده ، وظهر لهم انه من الخوارق ، لان دون كيخوتي وسانشو بانزا لم يذكرا انهما صادفا يوماً ما بدرو في احدى سفراتهما ! والحقيقة هي ان بدرو رأى هذين الشخصين العجيبين في الفندق ، فسأل عنهما ، فأخبر بكل ما أراد على وجه التفصيل . وعليه فان ما قاله القرد ليس بمعجزة مطلقاً ، ولو ذكر لهما حاضرهما أو تنبأ بمستقبلهما

ذهب الجمع الذي كان حاضراً هناك الى الغرفة المعدة للصور المضحكة ، وقد وضع فيها صاحب الفندق بعض شموع صغيرة لتنير المكان بضيائها . ثم تنحى الأستاذ بدرو الى وراء الستار الأبيض ليحرك الصور طبقاً لأدوار الرواية ، ووقف صبي في الامام ليشرح للمتفرجين معنى ما يظهر من الصور والتماثيل في الرواية

ظهرت على الستار القصـة الآتية : ـ خطف المغاربة الدونة ميليساندر زوجة الدون كيفيروز وحبسوها في أحد القصور ، فأخذ الدون كيفيروز يطوف البلدان للبحث عنها. وفي ذات يوم رأت ميليساندر زوجها الشريف ماراً بالقرب من جدار القصر الذي كانت محبوسة فيـه ، فهربت وركبت خلفه على جواده

الأصيل . فلما علم المغاربة بفرارها خرجوا كتلة واحدة ، وأخذوا يقتفون أثر الزوجين اللذين كانا قد أطلقا ساقي جواديهما للريح

فتهيج دون كيخوتي من هذه الضجة والعربدة . ولما رأى المغاربة يقتفون أثر الزوجين الحبيبين أخذته الحمية والنخوة ، وحدثته نفسه بمد يد المعونة الى الفارين فوثب من مكانه وصاح بصوت مرعب :

« قفوا أيها الكلاب . . . قفوا . . . فانه ما دام دون كيخوتي حياً لن يدع شڤاليه باسلاً كالدون كيفيروز يهان وتسلب منه زوجته الشريفة . »

ولم يتم كلامه هذا حتى سلّ حسامه وجعل يضرب في المغاربة يميناً ويساراً ، صارعاً هذا وجارحاً ذاك ، الى أن حطم التياترو قطعاً قطعاً

فاخذ الاستاذ بدرو يستغيث ، ويتوسل الى دون كيخوتي بأن يكف عن هذا العمل قائلاً : —

« أرجوك ياسيدي دون كيخوتي أن تعود الى رشدك ، ليس هؤلاء مغاربة حقيقة ، بل هم صور مضحكة من الورق الثخين . أواه ، تنح ! وأسفاه واويلاه ! لقد قضيت على صنعتي التي آكل بها خبزي . »



دون كيخوتي يهاجم المغاربة

الا ان دون كيخوتى لم يعبأ بهذا القول ، واستمر على الضرب والطعن دون ان يلتفت الى قول أحد ، وقد خاف الكل من هذا الرجل المشئوم . أما القرد فقد هرب وصعد على شباك كان في أعلى الغرفة ، وأما الخادم وسانشو وصاحب الفندق مع بقية المتفرجين فقد وقفوا حيارى من الخوف والدهشة اللذين اعترياهم

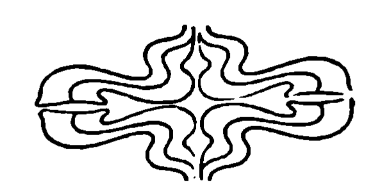
ولما تم تخريب التياترو أخذ دون كيخوتى يجول من حوله مسروراً بفعلته هذه ، ثم صاح بصوت عال : «لتحي الشفاليه الرحالة ! »


دون كيخوتي ينادي : لتحي الشفاليه الرحالة

فقال صاحب التياترو المسكين بصوت خافت «أواه ، وأيّ حياة ! اني ميت لا محالة . فقد كنت أملك ملوكاً

وامبراطرة ثم لم يبق شيء عنـدى . فلست الآن سوى فقير متسول ، وكل ذلك بفضل هذا الشـقاليه الذي يطوف البلاد لتقويم المعوج ، وحماية الايتام والضـعفاء ، وغير ذلك من الاعمال ، في سبيل الانسانية . »

أما سانشو فانه اجتهد في تسكين سيده وبدرو معاً ، مؤكداً لهذا الأخير بأن دون كيخوتى سيدفع له تعويضاً عن كل ما أتلف من ممتلكاته . فانتعش بدرو بهذا القول قليلاً أما دون كيخوتى فلما لم ير أمامه سوى قطع من الخشب والورق لام الساحر الخبيث كل اللوم ، لأنه في هـذه المرة أيضاً بدل ظاهر الأشخاص الحقيقيين ، وجعلهم بغـير المنظر والصورة اللتين ولدتهم بهما أمهاتهم . ثم دفع التعويض بطيب خاطر ، وأضاف اليه مبلغاً آخر تعزيةً للرجل على مصابه ، ثم دفع الى صاحب الفندق أجرة مبيته اضـعافاً مضاعفة ، فاندهش الكل من هـذا السخاء العظيم . وفي اليوم الثاني صباحاً سافر دون كيخوتى ومرافقه معاً



الفصل الثاني عشر

يجب ان لا نظن ان سانشو نسي يوماً ما الجزيرة التي تصبو اليها نفسه ، بل كان يتذكرها ليلاً ونهاراً وفي كل ساعة من ساعاته . وكلما لم ير أمامه آثاراً تدل على قرب حصوله عليها يزداد رغبةً فيها وتوقاً اليها

وبينما كان يسير مع دون كيخوتي على طول نهر الابر صادفا جماعة من السيدات والرجال سائرين في مرج أخضر لطيف للنزهة والقنص . وبما ان دون كيخوتي شفاليه حقيقةً لم يتأخر عن ارسال مرافقه الى السيدة النبيلة التي يظهر انها رئيسة هذا الجمع



الدوق والدوقة

ليلتمس منها الأذن بمجيء شفاليه الأسود ـ هذا عنوان الشفاليه الجديد ـ ليعرض عليها عبوديته واخلاصه

وكانت هذه السيدة دوقة تقيم مع زوجها الدوق في قصر قريب من ذلك الجوار . وكان الزوجان لطيفين متعلمين سامي التربية والاخلاق وعريقين في الشرف والمجد . فلما علما بأن الشفاليه المشهور ورفيقه العجيب سانشو يريدان أن يزوراها دعياها حالاً للاقامة في قصرهما زمناً طويلاً ، واعدين باحضار ما تشتهيه نفسهما وما يهواه قلبهما على قدر الاستطاعة

فكاد سانشو يطير من الفرح لأنه كان يحب النوم في فراش ناعم والأكل من اللحم الجيد مرات عديدة كل يوم . ثم فرح فرحاً لا حدّ له حينما أبلغه الدوق خبر تعيينه حاكماً على جزيرة من املاكه حيث يجب ان يذهب بلا تأخير

وكانت هذه الجزيرة المزعومة بلدة صغيرة تحت حكم الدوق لا يحيط الماء بها ولا بقسم منها . ولكن الدوق سماها جزيرة لغرض في نفسه . أما سانشو فلم يكن ليعرف الجزيرة بمعناها الحقيقي فارتضى بالاسم فقط

وكان الدوق قد عزم على ان يسخر بسانشو أثناء حكمه الجزيرة فأصدر أوامره الى أشراف البلدة باتباع الخطة التي بينها لهم من



سانشو يركع أمام الدوق

قبل في معاملة سانشو . وقرر ان يريح دون كيخوتي في القصر في خلال ذلك

وقبل ان يفارق سانشو سيده عزم الدوق والدوقة على ترتيب حادثة غريبة لرفع السحر عن الدونة دياسينا دوتوبوسو ، لأن دون كيخوتي مازال يندب حظه لعدم استطاعته رؤية جمال سيدة أفكاره التي لا مثيل لها بسبب كره السحارين له وتحويلهم خلقتها الى صورة قروية ضخمة الجثة . ولما كانت الدوقة قد علمت بالدور الذي لعبه سانشو مع سيده بهذه المناسبة نظمت

أضحوكة لطيفة لتجعل روح دون كيخوتى مستريحة على حساب مرافقه المسكين

وفي ذات يوم خرج الدوق والدوقة مع أصدقائهما وحاشيتهما الى الغابة متظاهرين بالصيد والقنص . فوصلوا الى بقعة لا شجر فيها، وهناك جاءهم بغتةً جماعة على خيولهم كانوا قد سمعوا صوت الطبول من بعيد . وكان في وسط الموكب مركبة مزينة بالاعلام والاكاليل من ورق الأشجار وفي وسطها غادة حسناء جالسة وهي مرتدية أفخر الثياب ومقنعة بنسيج خفيف من الابريسم الأبيض . وكان على جانب منها شبح غريب الخلقة له هيئة السحرة الأشرار كأنه حارس يحرسها من طوارق الحدثان ونوائب الزمان

كان دون كيخوتي وسانشو ينظران الى هذه المنظرة الغريبة بعيون مبهوتة ، وبحيرة واندهال . وكم كانت حيرتهما عظيمة عند ماوقفت المركبة أمامهما وأزاح الساحر الستار عن وجهه فبان من تحته هيكل عظمى مخيف ، وبعد ذلك أعلن بأن الفتاة التي بقربه هي الدونة دولسينا . ثم بين ان الدونة تحملت مصائب كثيرة تحت تأثير السحر ، ولا يمكن انقاذها من هذه الورطة الا بالطريقة الآتية (ثم قرأ هذه الابيات بخشوع وتواضع) :—

اليك أيها الشڤاليه ذو الوجه الحزين



منظر غريب

أريد ان اصرح بما عندي بدون غش أو خداع
ان السيدة ديلسينا نجمة قلبك
لن تعرف الحرية ولا السعادة

الا اذا ضُرب سانشو بيد من حديد
ثلاثة آلاف وثلاثمائة سوط
وأؤكد لك نجاة زهرة توبوسو
اذا كان سانشو يوافق على ما نريد

فارعبت هـذه التصريحات المهمة قلب سانشو الجسور ، ولم يتمالك من أن أعلن على رءوس الاشهاد بأنه لن يوافق على تكبد محنة كهذه ، حتى ولا على تحمل ثلاثة اسـواط . ثم قال « والله ! انني أفضـل ان تبقى السيدة ديلسينا مسحورة الى آخر يوم من حياتها على أن أضرب سوطاً واحداً . »

فقال له الدوق ـ عند ما كان صدى نواحه وصراخه يرنان في الغابة ـ : « اقول لك الحقيقة يا صديقي سانشو ، انه ما دمت خالياً من قلب رقيق وشـعور حي فلا أظنك تستطيع أن تحكم أية جزيرة من جزائري . اذ أني لا أرى من المناسب أن أعين على رعاياي الصالحين حاكماً ظالماً قاسي القلب مثلك لا يؤثر فيه تحذير السحرة المحترمين ، ولا يحرك قلبـه الصخري نحيب الأوانس الجميـلات ، فاعلم يا سانشو انك لن تضرب بالسياط ولن تنال جزراً . »

فتداخلت الدوقة في الأمر وقالت : هلم يا سانشو ! تشجع وأثبت محبتك بالبرهان لسـيدك الذي أكلت خبزه . هلم يا بني

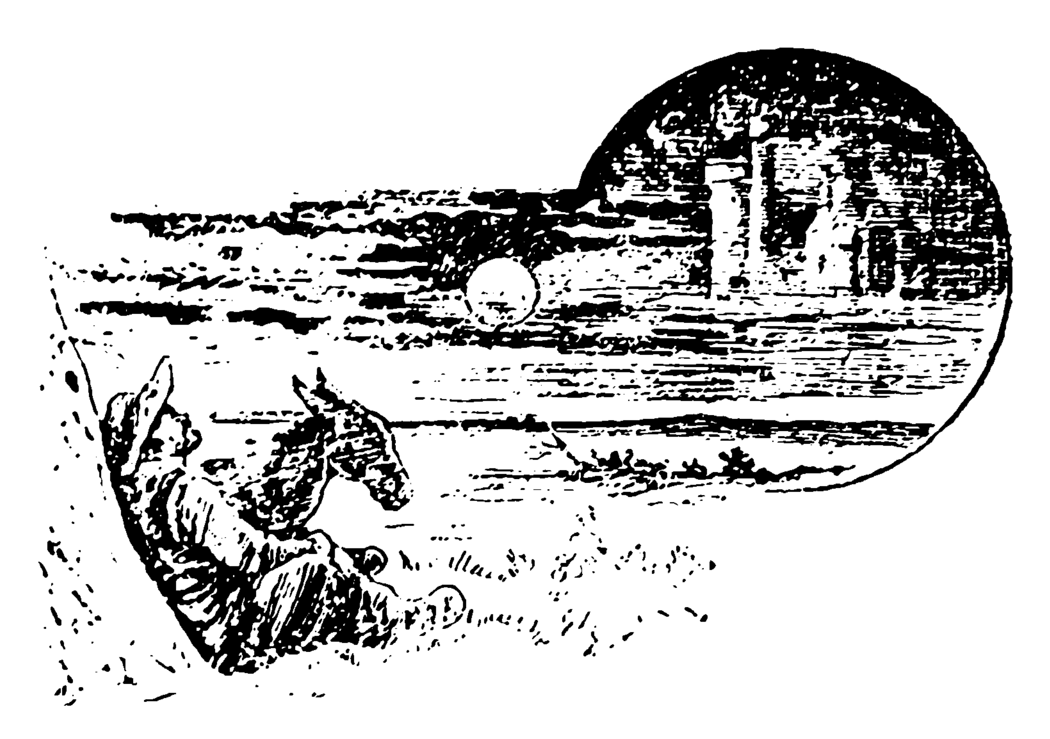
ودع الخوف للجبناء ، وقد أحسن من قال « القلب الصالح يقتحم الطالع النحس . »

فوافق أخيراً سانشو المسكين وقال « نعم قبلت ، ومهما كان هذا الحكم غير معقول فقد وافقت على تنفيذه . ولكن على شرط واحد وهو أن يكون لي الحق في تعيين الساعة التي أضرب فيها ، مع تحديد عدد الضربات في كل مرة . »

فقالت الدوقة « حسن ، ولكن تحذر ، فان هذه الضربات ليست صفعات يد خفيفة ، بل هي ضربات شديدة بسياط مجدولة جدلاً محكماً . »

وفي المساء بينما كان سانشو مختلياً وحده ضرب نفسه خمس ضربات خفيفة بمقرعة يريد بذلك تمرين جسده على تحمل الضرب المتفق عليه

الفصل الثالث عشر



سافر سانشو الى جزيرته ، وذهب معه — كدليل — أحد رجال الدوق المخلصين ، وكان هذا محباً للهزل والضحك ، وقد تلقى أوامر سيده الدوق بالسمع والطاعة

كان سانشو راكباً بغلاً ويساق وراءه حماره الأمين بومله وعليه بردعة من اللباد المطرز بالخيوط الملونة ، فوقها شبكة من حرير محبوكة بخيوط من الفضة ؛ فظهر بهذه الحلة القشيبة كأنه حصان من أفخر الجياد المخصصة للزينة والتفرج . فوصلوا الى بلدة جميلة يبلغ عدد سكانها الألف تدعى جزيرة باراتاريا — وهو الاسم الذي وضعه الدوق حديثاً — فأسرع القضاة ونخبة الأهلين

وخرجوا من الأبواب لاستقباله وتسليمه مفاتيح المدينة . فدقت الأجراس وعمت الأفراح بين الجميع على شرف قدوم الحاكم الجديد

ولما وصل سانشو الى القصر الفخم المعدّ له قاده الخدم وموظفو القصر الى قاعة الطعام حيث كان العشاء حاضراً ؛ فسر سانشو بذلك كثيراً . ثم جاء أربعة من الخدم بيدهم الأباريق وآنية الماء فغسل يديه وجلس على المائدة وحده ولم يجد هناك سوى آنية واحدة للأكل مما يدل على أنه سيأكل منفرداً

رفع الخدم عن المائدة غطاء أبيض فظهر من تحته انواع مختلفة من الطعام النفيس ؛ ثم ربطوا له في عنقه منشفة دائرها مخرم ومزين بالدانتلا . وبعد أن قرأ أحد التلاميذ دعاء الطعام وضع أحد الخدم امام الحاكم صحناً مملوءاً بالفاكهة فشرع سانشو يأكل منه باشتهاء عظيم

وقد اندهش سانشو عندما رأى شخصاً لابساً لباس الأطباء قد جاء ووقف خلفه وفي يده قضيب من خشب . ولم يكد سانشو يضع ثمرة في فمه حتى رأى الشخص المذكور قد ضرب بعصاه الصحن فرفعه الخادم حالاً .

فقدموا له صحناً آخر مملوءاً لحماً وما كاد سانشو يضع فيه سكينه وشوكته ليأخذ قطعة من اللحم حتى رأى القضيب ينزل

من جديد ، فاختفى الصحن عن عينيه

أدهش هذا العمل الحاكم ، فنظر الى الحاضرين وسألهم « هل تقصدون ابراز مهارتكم في الخطف فأحضرتم هذا العشاء لتلك الغاية ؟ »

فقال الطبيب « يا سيدي أنا طبيب وأتقاضى راتباً شهرياً في هذه البلدة للعناية بصحة الحكام ولدرس امزجتهم البدنية ليلا ونهاراً . وأهم وظائفي أن أمنعهم من أكل ما أراه زائداً على معدتهم لئلا يصيبهم من ذلك شر . وعليه فقد أبعدت عنك الفاكهة لأنها كانت رطبة وباردة وكذلك اللحم لأنه كان حاراً جداً »

فقال سانشو « حسن جداً . ولكن هذه الحجلات المشوية لا أظنها تؤذيني أبداً . »

فصاح الطبيب « توقف ! لا . ما دمت قادراً على منعك فلا يمكنك ان تتناول شيئاً منها . انه لا شيء ارداً من لحم الحجل . »

فأجاب سانشو « اذن ايها الدكتور هل لك أن تتفضل وتقول لي أي طعام تسمح لي بأكله بين هذه الأطعمة المختلفة . هذا لحم أرنب وهناك لحم عجل و ... و ... ها ها هذا صحن كبير من المتبل اعطني منه قليلا . »



عناية الطبيب بمعدة الحاكم سانشو

فصاح الطبيب « لا. لا . لحم الأرانب والعجول لا يوافق صحة سيادتكم قط . واما المتبل فلم أر شيئاً في حياتي أضر منه للمعدة . ولأجل حفظ صحتك الثمينة أشير عليك بأن تأكل اثنين أو ثلاثة من خبز الرقاق وبضع قطع من الأثمار الجافة . »

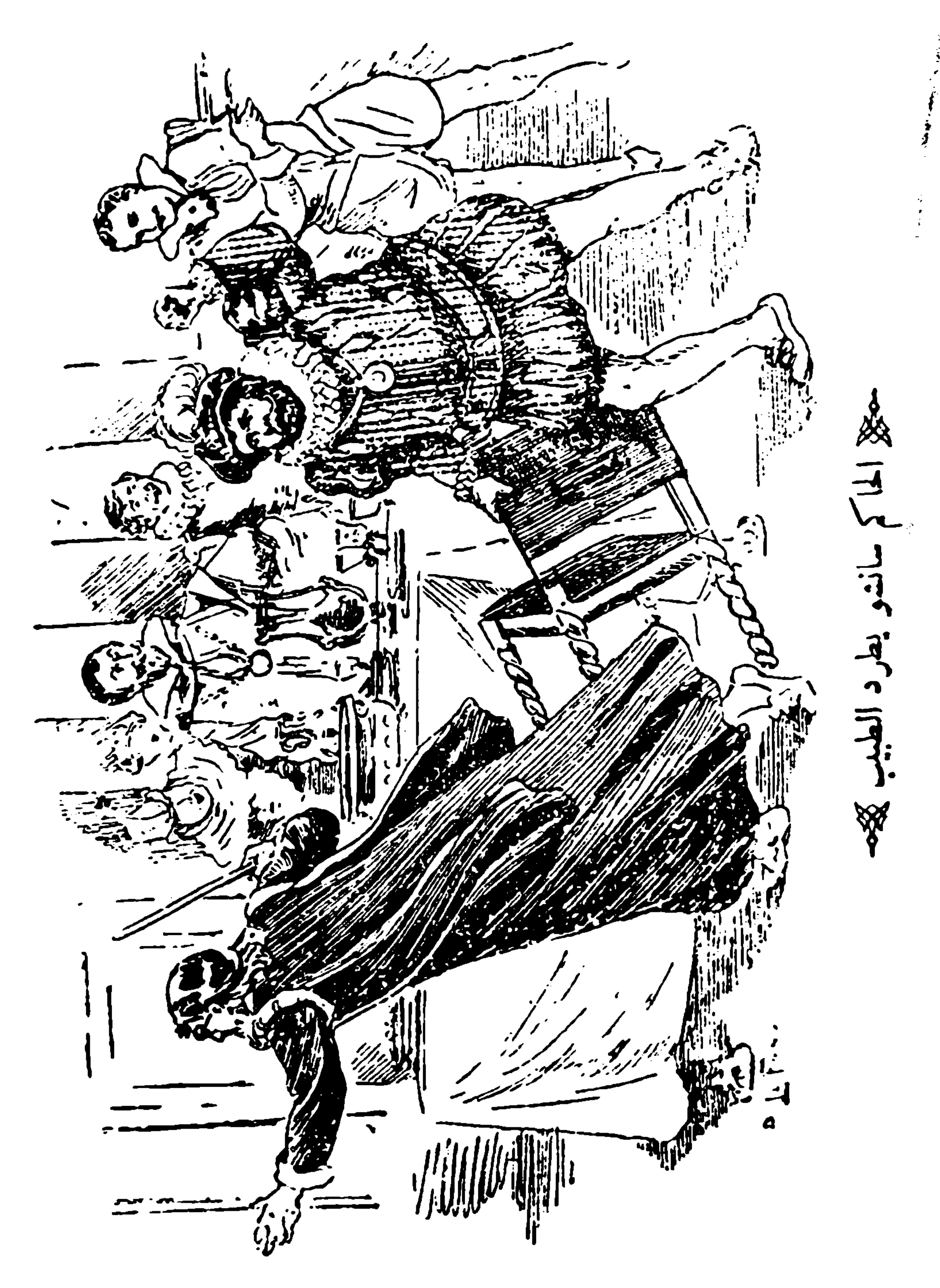
فلما سمع سانشو هذه النصيحة اسند ظهره الى الوراء وسأل الطبيب عن اسمه

فأجاب الطبيب « اني معروف يا سيدي بين الناس بالدكتور بدرو ريزيو اوكيرو »

فقال سانشو غاضباً « اذن يا حضرة الدكتور ريزيو أوكيرو اذهب من هنا ، اخرج من هنا حالا ! اقول لك مرة أخرى : بدرو ، بدرو ! اخرج من هنا . . . والا فانى اشج رأسك بهذا الكرسي الذي اجلس عليه. دعونى آكل والا نخذوا هذا الحكم من يدي . ان الصنعة التى لا تشبع بطن صاحبها لا تساوى حبتين من الحمص الناشف . »

نخاف الطبيب وابتعد من المكان . ثم فاه سانشو بهذا الخطاب : —

« يجب ان لا يستهزيء أحد بي . سأحكم هذه الجزيرة بصدق وأمانة بدون واسطة أو وسائط . ولكن اعلموا كلكم بأنى لن أتساهل في أي حق من حقوقي الخاصة . يجب ان ينتبه كل منكم



الحاكم سانشو يطرد الطبيب

الى أشغاله وأعماله بكل دقة والا فانه يعاقب على خطأه عقاباً صارماً • وأرغب قبل كل شيء أن تمتنوا بي وبحماري بومله ؛ وان تقدموا لنا الطعام اللائق بكل منا • لا تقدموا لي مثل هـذه

الفاكهة التي لا تشبع البطن ولا تسند المعدة ، بل قدموا لي طعاماً جيداً بسيطاً مغذياً نظيفاً • واعلموا أيضاً بأن لي فكرة أن أنظف هذه البلدة من جميع القاذورات والمزابل كمحلات القمار والسفلة الذين يترددون اليها ؛ وكذلك من المحتالين والنشالين والمتشردين والمتسولين الصحيحي الأجسام • وسأشجع المزارعين على الاهتمام بزراعتهم وأكافىء أصحاب الفضيلة وأخدم الأديان خاصة • »

وبعد أن حكم سانشو يومين أو ثلاثة كتب الى دون كيخوتي هذا الكتاب يطلعه فيه على سير الأمور : —

سيدي العزيز ،

اني مشغول كثيراً فوق ما يتصور في ادارة أمور الجزيرة ، غير انى أكاد أموت هنا من الجوع • وأوكد لك بأني لم أشعر بجوع كهذا عندما كنت اطوف معك في البراري المقفرة والأراضي القاحلة • وعندنا طبيب يدفع راتبه من قبل سكان الجزيرة ؛ دأبه قتل الحكام الذين يتقدم منهم جوعاً واسمه بدرو ريزيو او كيرو • تيقن بأني أموت خوفاً عند سماع هذا الاسم. وقد كنت اعتقد بأن الحكام ينالون كمية وافرة من الطعام الحار ، والمشروبات المرطبة ، وينامون على أسرة من الريش الناعم ؛ ولكن تبين لي الآن ان الحقيقة خلاف ذلك • وقد ندمت على ما فرط مني ، وها انا ذا اعيش عيشة النساك والمتزهدين

وفي الختام اضرع الى الله تعالى أن ينقذك من أيدي السحرة الأشرار ، وان يخرجني انا من هـذه الجزيرة سالماً صحيحاً ، لأني أعتقد بأن الدكتور بدرو ريزيو سيقرّب أجلي ، ولا ريب في أني سأترك عظامي هنا عما قليل

خادم سيادتكم المخلص الأمين
(الحاكم) سانشو بانزا

حكم سانشو جزيرته اسبوعاً كاملاً ، وفي اليوم السابع مرض من الجوع فلم يقدر بعد على ادارة الأمور أو الحكم بين الناس ولا على نشر الأوامر والبيانات

وبينما كان نائماً في فراشه أفاق مذعوراً على صوت الأجراس والطبول وعربدة الرجال المسلحين وقعقعة السيوف ، فظن أن الجزيرة قد انقلبت رأساً على عقب ، وصارت مسرحاً للوحوش الكواسر

فنهض سانشو وقلبه يختلج من شدة الاضطراب والخوف ، وفتح الباب فتقاطر على غرفته جم غفير من الرجال حاملين المشاعل والسيوف المسلولة اللامعة وهم ينادونه :

« الى السلاح ... الى السلاح ... يا حضرة الحاكم . تسلح ! لقد دخل الجزيرة رهط من الأعداء . تسلح وامش أمامنا الى السوق للحرب والنزال . »



هجوم الشعب على غرفة الحاكم سانشو يدعونه لمحاربة العدو

وقبل أن يتمكن من الاجابة على صراخهم تقدموا منه وربطوا ترساً عظيماً في صدره وآخر في ظهره وقد كانوا أحضروا هذين الترسين لاتمام روايتهم المضحكة التي سيمثلونها على حساب سانشو المسكين . ثم ربطوا سانشو بهذين الترسين بالحبال ربطاً محكماً بحيث لا يستطيع الحاكم المزعوم احناء ظهره أو المشي خطوة واحدة ، ثم ناولوه رمحاً في يده للتوكؤ عليه وحفظ جسده من السقوط تحت ثقل الترسين العظيمين . وشددوا عليه لأن يسير أمامهم فيقودهم الى النصر المبين .

فصاح سانشو « امشي ؟ أحقيقة ما تقولون ؟ كيف أستطيع المشي وأنا محصور بين هذه الصفائح الحديدية المشئومة ؟ »

فلما شددوا عليه لم ير بداً من اتباع قولهم فوثب وثبة الى الأمام غير انه وقع الى الأرض كالحمل الثقيل فشعر بأن عظامه تكسرت وبقى مطروحاً على الأرض كالسلحفاة العظيمة .

فأطفأ الرجال المشاعل وجعلوا يقعقعون بسيوفهم موهمين سانشو بأنهم قد اشتبكوا مع الأعداء في حرب عوان . أما سانشو المسكين فقد خاف كثيراً وأخذ يدعو الله أن ينقذه من حكم الجزر كلها .

وتلا ذلك بغتة هتاف الفرح والاستحسان : « النصر ، النصر . . . » ، فأقبل الرجال على حاكمهم ورفعوا عنه الترس

الا أن سانشو أغمي عليه ، فخاف هؤلاء شر العاقبة ، وندموا ، لأنهم شددوا عليه كثيراً في تمثيل روايتهم الهزلية .

وفي المساء أفاق سانشو من غشيته ، فنهض ولم يتكلم مع أحد من الذين كانوا بقربه ، بل نزل بهدوء وبطء الى الاسطبل حيث يقيم بوهله • فعانق حماره ، وضمه اليه والدمع في عينيه ، ثم طبع على جبهته قبلة حارة وقال : « تعال . تعال يارفيقي وصديقي . العزيز ان تلك الأيام التي كنا نعيش فيها معاً ، وكان أقصى آمالي ان أشبعك وأصلح لك برذعتك ، تلك الأيام كانت أحسن حياتي . »

ثم وضع عليه البرذعة القديمة دون أن يكلم أحداً . وبكل صعوبة تمكن من الركوب عليه ، لأنه كان خائر القوى من شدة ما أصابه . ثم خاطب الحاضرين بالكلمات الآتية : —

أيها السادة ،

دعوني أرجع الى حريتي السابقة . . دعوني أفر من الموت العاجل الذي ينتظرني هنا . . يجب على كل انسان أن يزاول الحرفة التي خلق لها . ان المجرفة في يدي أفضل عندي من صولجان الحكام ، واني أؤثر أكل الحساء على أن أكون تحت رحمة بائع العقاقير . أتيت الى هذه الجزيرة بلا فلس واحد ، وسأتركها صفر اليدين • فلاتمنعوني من السفر — أيها السادة — ودعوني أمضي في سبيلي . »

ثم رجع سانشو الى سيده .

الفصل الرابع عشر

لقد أشرفت وقائع دون كيخوتي ومرافقه على النهاية . وقبل وقوع ما ذكرناه قبلاً ببرهة وجيزة كان قد اشتبك دون كيخوتي في معركة منفرداً مع أحد رجال الشڤاليه فخرج منها مغلوباً مقهوراً . وكان هذا الشڤاليه هو المتخرج سامسون كاراسكو المتنكر ، وعمله هذا من نتائج الخطة التي وضعت أملاً في ارجاع دون كيخوتي الى بيته . وكانت شروط المعركة أن يكف الشڤاليه المغلوب عن حمل السلاح مدة سنة كاملة . ومن المعلوم لدى الجميع أن دون كيخوتي لابد أن يصدق وعده اذا غُلب .

ولما التقى سانشو بسيده أراد أن يبين اخلاصه ومحبته له ، فوافق على تكبد ثلاثة آلاف وثلاث مائة سوط لأجل انقاذ الدونة ديلسينا من أيدي الساحر الشرير ، غير انه اشترط أن يكون الضرب في الليل فقط .

ولأجل ذلك صنع سانشو سوطاً من حبل كان يستعمله كمنطقة لحماره . وعندما جاء الليل حسر عن جسمه الى السرة ورجع الى الوراء بضع خطوات تحت شجرة هناك بينما كان دون كيخوتي واقفاً على الطريق يعد الضربات من صوتها عندالوقع ودام هذا العمل عدة ليال أتم في خلالها سانشو نوبته وقد

سقط كثير من قشر الشجرة التي كان يضربها المرافق بيده المتينة بلا رحمة .



سانشو يضرب الشجرة

فلما وصلا الى قريتهما تلقاهما أصدقاؤهما بصدور رحبة ووجوه باشة .

ولكن — ويا للأسف — كل حي فان . لأن دون كيخوتي سقط مريضاً بالحمى بعد أيام قلائل من عودته ، أما

لكدره من الغلبة التي تقضي عليه بالبقاء سنة واحدة بلا عمل ، واما لسبب آخر لا نعلمه .



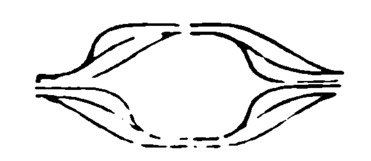
دون كيخوتي على فراش الموت

فأحضروا طبيباً ليراه فأظهر هذا علائم الأسى والحيرة ، مما دل على انه يخشى عاقبة هذا المرض، ..غير أن دون كيخوتي تلقى هذا الخبر بسكون ورباطة جأش أكثر من أصدقائه وأقربائه الذين كانوا يخدمونه حول فراشه . فبكته المربية وابنة أخته وكذلك سانشو المسكين بكاءاً مراً وتكدر القس والمزين والمتخرج كاراسكو على فقده كدراً عظيماً .

وقبل أن يقضي خرجت من دماغه جميع أبخرة الشفاليه الرحالة وتركته نقياً نظيفاً كالبلور .

وهكذا مات دون كيخوتي بطل المانش . وقد جن مرة في حياته ، الا انه كان دائما رجلاً مسيحياً بكل معنى الكلمة ، وكان شريفاً نزيه النفس وذا تربية سامية ، ولم يتفوه في حياته بكلمة بذيئة أو مخلة بشرف الغير ، ولم يعمل قط عملاً دنيئاً . فلينم هادئاً مطمئناً بسلام .

« انتهى »



DON QUIXOTE

By

Miguel - de - Cervantes - Saavedra

TRANSLATED

BY

Abdul - Kadir Rashid

CAIRO

Salafyah Printing Office

1923

DON QUIXOTE

By

Miguel - de - Cervantes - Saavedra



TRANSLATED BY

Abdul - Kadir Rashid

CAIRO

Salafyah Printing Office

1923